سر اختفاء القبطان

محمود سالم

سر اختفاء القبطان

تأليف
محمود سالم

هنـــداوي

سر اختفاء القبطان

محمود سالم

الناشر مؤسسة هنداوي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شييت ستريت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة
تليفون: ٨٣٢٥٢٢ ١٧٥٣ (٠) ٤٤ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

إنَّ مؤسسة هنداوي غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه.

تصميم الغلاف: وجدان توفيق

الترقيم الدولي: ٥ ٢٩٠٦ ٥٢٧٣ ١ ٩٧٨

صدر هذا الكتاب عام ١٩٩٦.
صدرت هذه النسخة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢٢.

جميع حقوق النشر الخاصة بتصميم هذا الكتاب وتصميم الغلاف محفوظة لمؤسسة هنداوي.
جميع حقوق النشر الخاصة بنص العمل الأصلي محفوظة لأسرة السيد الأستاذ محمود سالم.

المحتويات

من هم الشياطين الـ «١٣»؟	٧
أبطال هذه القصة	٩
استغاثة!	١١
المهمة الصعبة!	١٥
عذاب ... ولكن!	١٩
النورس الغريب!	٢٣
رحلة في البحيرة!	٢٩
في الليل!	٣٥
البركة السرية!	٤٣
الطاحونة المهجورة!	٤٩
صراع في الظلام!	٥٥

من هم الشياطين الـ«١٣»؟

إنهم ١٣ فتًى وفتاةً في مثل عمرك، كلٌّ منهم يُمثِّل بلدًا عربيًّا. إنهم يقفون في وجه المؤامرات الموجَّهة إلى الوطن العربي ... تمرَّنوا في منطقة الكهف السِّري التي لا يعرفها أحد ... أجادوا فنون القتال ... استخدام المسدسات ... الخناجر ... الكاراتيه ... وهم جميعًا يُجيدون عدة لغات.

وفي كل مغامرةٍ يشترك خمسة أو ستة من الشياطين معًا ... تحت قيادة زعيمهم الغامض رقم «صفر» الذي لم يرَه أحد، ولا يعرف حقيقته أحد.

وأحداث مغامراتهم تدور في كل البلاد العربية ... وستجد نفسك معهم مهما كان بلدك في الوطن العربي الكبير.

أبطال هذه القصة

رقم «١»: «أحمد» من مصر.

رقم «٢»: «عثمان» من السودان.

رقم «٣»: «إلهام» من لبنان.

رقم «٤»: «هدى» من المغرب.

رقم «٥»: «بو عمير» من الجزائر.

رقم «٦»: «مصباح» من ليبيا.

رقم «٧»: «زبيدة» من تونس.

رقم «٨»: «فهد» من سوريا.

رقم «٩»: «خالد» من الكويت.

رقم «١٠»: «ريما» من الأردن.

رقم «١١»: «قيس» من السعودية.

رقم «١٢»: «باسم» من فلسطين.

رقم «١٣»: «رشيد» من العراق.

رقم «صفر»: الزعيم الغامض الذي لا يعرف حقيقته أحد!

استغاثة!

كانت الساعة تقترب من الرابعة صباحًا، وكان الضوء الخافت المنبعث من الموقع يُظهر الجنود كأنهم أشباح فوق رصيف البوغاز، الريح تعصف بشدة وتُصدر أصواتًا مخيفة، تبعث على الرهبة والخوف في القلوب وكأنها عواء مجموعة من الذئاب، وكانت من شدتها تصدم القوارب ببعضها البعض وتُحرِّك الصواري والأشرعة.

على حافة الرصيف وقريبًا من الماء كان يقف المقدِّم «يسري» وإلى جواره الرائد «عباس» يرتديان الزيَّ العسكريَّ الشتوي، وفي يد المقدم «يسري» بطارية إضاءة يعبث بها في اضطراب. بينما وقف الرائد «عباس» متحاملًا على إحدى ساقَيه ومستندًا بذراعه فوق أحد القوارب الشراعية.

الرائد «عباس»: متى وصلَت هذه الإشارة يا أفندم؟

المقدم «يسري»: في الساعة الثانية والربع تمامًا.

الرائد «عباس»: من أين؟ وما مضمونها؟

المقدم «يسري»: من مكتب المخابرات في «بلطيم»، تقول: «هناك سفينة بضائع تحمل اسم «صيدا» جنحَت إلى الشاطئ بالقرب من الموقع رقم ١غرب البوغاز قادمة من «بيروت» إلى «الإسكندرية»، والقبطان يطلب النجدة من الساعة الواحدة؛ حيث إن السفينة مُصابة بعطب في دفَّتها.»

الرائد «عباس»: وكيف جنَحت في المياه الدولية حتى اقتربت من الشاطئ؟

المقدم «يسري»: ليس المهم كيف جنحَت، المهم كيف سنتصرف؟ وماذا يمكن أن نفعل؟ إن أمواج البحر عالية كالجبال والريح شديدة، والإمكانات كما ترى معدومة ليس هنا سوى القوارب الشراعية، وهي لا تستطيع أن تخرج من البوغاز.

الرائد «عباس»: وهل السفينة بعيدة من هنا؟

المقدم «يسري»: على بُعد أربعة كيلومترات من بوغاز البرلس، وكيلومترين اثنين من الشاطئ.

الرائد «عباس»: إنها قريبة جدًّا ... إن القبطان الذي يصل إلى هذه المسافة ولا يستطيع أن يصل بها إلى الشاطئ لا يمكن أن يكون على معرفة بفنِّ البحار، ولا يمكن أن يسمَّى حتى نصف بحار ...

المقدم «يسري»: وما يدريك ... ربما كان يفكِّر في شيء ما، المهم ماذا سنفعل؟

اقترحْ عليَّ ... لقد وقعت الكارثة ولا يمكن عملُ أيِّ شيء حتى طلوع الشمس.

في ذلك الصباح استيقظ الناس في قرية برج البرلس فوجدوا شاطئ البحر ممتلئًا بثمار الزيتون والتين والتفاح وألواح الخشب والأقلام وصفائح النشادر وأكياس البلاستيك وأشياء كثيرة.

كانت السفينة تبدو من بعيد كالفريسة الهامدة والبحر الهائج يحطم في جوانبها ويفترسها ويُلقي بما في باطنها إلى الشاطئ وكأنه ينتقم منها. وعلى الشاطئ الغربي امتلأ المكان بالجنود والصيادين الذين ينتظرون خروج بحَّارة السفينة مع الأمواج الهائجة التي تقذف بهم إلى الشاطئ.

إنه مشهد مروِّع؛ الصيادون والجنود يتلقَّفون البحارة واحدًا تلوَ الآخر كأنهم عائدون من معركة مستحيلة، كان النصر فيها بمعجزة فاقَت كلَّ القدرات.

وتقدَّم المقدم «يسري» من أحد البحارة وربَّت على كَتِفه قائلًا: حمدًا لله على السلامة، كم عدد طاقم السفينة؟!

أجاب البحار وهو يرتعد: ستة وثلاثون.

استدار المقدم «يسري» متجهًا إلى الرائد «عباس» الذي يُمسك بين يديه قلمًا وورقًا يدوِّن فيه أسماء البحَّارة وعددهم، وسأله وهو يتحرك نحوه: كم عدد الموجود يا سيادة الرائد؟

نظر الرائد «عباس» في آخر الكشف ثم قال: ثلاثون يا سيادة المقدِّم.

أدار المقدم «يسري» وجهه ناحية البحر الهائج وهو يقول: هناك ستة فوق ظهر البحر، لا بد أن نصنع شيئًا لهم، ولكن كيف؟ لا أدري.

استدار مرة أخرى ناحية الرائد «عباس»، وسأله قائلًا: هل القبطان موجود ضمنهم؟

الرائد: لا ... ليس موجودًا ولا مساعده.

المقدم «يسري»: إذن ليس أمامنا إلَّا الانتظار حتى يخرجوا أحياء أو أمواتًا.

الرائد «عباس»: لا يمكن يا سيادة المقدم أن يظلوا أكثر من ذلك؛ فالبرد شديد والبحر كما ترى كالجبال.

المقدم «يسري»: ربما يكونون قد ركبوا قاربًا من قوارب النجاة، أو تعلَّقوا بشيء من السفينة …

الرائد «عباس»: وربما يكونون قد ماتوا.

المقدم «يسري»: لا يجب أن نتعجل في إصدار الأحكام، ويجب أن ننتظر … كانت الساعات تمرُّ عصيبة والأمواج الهادرة كأن بينها وبين السفينة ثأرًا فهي تنتقم منها وتُلقي بأجزاء منها إلى الشاطئ كأنها تريد أن تُرهب الواقفين على الشاطئ.

كانت الساعة تقترب من الثالثة بعد الظهر، الجو شتوي بارد، ولم يبقَ سوى ساعتين على حلول الظلام. وكان المقدِّم «يسري» قد رجع إلى مكتبه في الكتيبة ينتظر مرور الدقائق الثقيلة كالجبال … ينظر في ساعة الحائط، أَزِف وقتُ تغيير الخدمة، مرَّت عشر دقائق بعد الثالثة، وبدأ يظهر من بعيد جنديٌّ من حرس «الهجانة» فوق الجمل وهو يُسرع به ويدخل من البوابة البحرية للكتيبة، يقترب من غرفة قائد الكتيبة، ينزلُ مسرعًا من فوق الجمل ويتقدم إلى غرفة القائد، يدخل ويقدِّم التحية العسكرية للمقدم «يسري».

المقدم «يسري»: ماذا هناك؟

ردَّ الجندي في تلجلج: لقد قذف البحر بثلاث جثث إلى الشاطئ، وبالقرب من الموقع ١ الشرقي يوجد قارب غارق بالقرب من الشاطئ. وقد تحطَّمت بعض أجزائه.

عندئذٍ أمر المقدم «يسري» باستدعاء الحارس من الخارج … وعندما وصل الحارس مسرعًا، قال: أوامرك يا سيادة المقدم.

المقدم في حزم وسرعة: جهِّز السيارة بسرعة.

لم تكد تمضي دقائق قليلة حتى كانت السيارة الجيب العسكرية تقطع الشاطئ إلى مكان الجثث، ونزل الجنود ورفعوا الجثث في السيارة ثم اقترب المقدم وصَعِد فوق إحدى قطع الصخور يدقِّق النظر في القارب المحطَّم ثم رجع إلى السيارة واتجه إلى الكتيبة، وتم إبلاغ مكتب المخابرات للتصرف في أمر هذه الجثث … لكن قبل أن يحلَّ الظلام بدقائق، ألقى البحر بجثتَين أخريَين فوق الشاطئ وتم التعرف عليهما من البحارة.

ولم يكن القبطان ضمن الأموات، ولم يكن كذلك مع الأحياء.

شيء غريب! الأحياء قد خرجوا، والأموات كذلك ألقى بهم البحر … أين ذهب القبطان؟

حتى قوارب النجاة الأربعة خرجت إلى الشاطئ محطَّمة. فأين ذهب القبطان؟ وهل هو حي أم ميت؟

قام المقدم بعمل اللازم فتم إبلاغ مكتب المخابرات وكذلك قيادة قوات حرس الحدود بتقرير مفصَّل من لحظة استغاثة القبطان حتى خروج آخر جثة. لكن بقي السؤال الذي لم تكن له إجابة في التقرير: أين ذهب القبطان؟

المهمة الصعبة!

في اليوم السادس من جنوح السفينة في مياه البحر المتوسط بالقرب من بوغاز البرلس بمصر ... يكون قد مضى على الشياطين ثلاثة أسابيع في ملل؛ لأنهم بدون عمل، فهم لم يتعودوا على هذا التوقف والبقاء دون مغامرة. لكن في تمام الساعة الثالثة من عصر ذلك اليوم كان أزيز جهاز اللاسلكي يملأ الغرفة بالمقر السري للشياطين. أسرعت «إلهام» لتتلقَّى رسالة جديدة.

من رقم «صفر» إلى «ش. ك. س»

ظهر رجل في «بيروت» منذ فترة، وكان يتابع أخبار سفينة البضائع «صيدا»، والتقى بالقبطان أكثر من مرة بعيدًا عن الأعين ... لكن عاد وظهر فجأة منذ يومين في قرية برج البرلس بمصر. يبحث عن القبطان الذي جنحَت سفينتُه في مياه البرلس. وقد عرض على بعض الأشخاص مكافأة مالية قدرها مائة ألف جنيه لمن يعثر عليه أو يتعرف على مكانه أو يُدلي بمعلومات تُرشد إليه، ويدَّعي هذه الرجل أنه قريب له.

الأمر بهذه الصورة يدعو للريبة، لو كان قريبه فعلًا لأبلغ السلطات وكلَّفهم بالبحث عنه أو انتظر حتى يخرج من البحر حيًّا أو ميتًا، أمَا وقد عرض هذه المكافأة بعيدًا عن السلطات؛ فإن الأمر يدعو للريبة والشك، ولا بد من الوصول إلى هذا القبطان لاكتشاف سر اختفائه.

جهِّزوا أنفسكم للسفر إلى «مصر» ... وانتظروا تقريرًا مفصَّلًا في الساعة العاشرة مساء.

كان على «إلهام» أن تنتظر حضور «أحمد» حتى تخبره بالتقرير الغامض والغريب. إنها أول مرة تسمع عن هذه البلدة ... وما كادت تراه حتى صاحت: تقرير وصل منذ لحظات من رقم «صفر»، وقرأت عليه التقرير ثم قالت له: هناك تفصيلات أخرى في تقرير آخر سيأتي في الساعة العاشرة.

في الساعة الثامنة مساء ذلك اليوم كان عددٌ من الشياطين قد عاد إلى المقر السري ... ولم يكونوا قد علموا بأمر التقرير الذي وصل من رقم «صفر»، وأخبرهم «أحمد» بكل ما ورد في التقرير فجلسوا يتناقشون في أمر هذا التقرير المقتضَب: كيف اختفى هذا القبطان؟ هل خرج من البحر؟ أم أن الأسماك أكلت جثته؟

وإذا خرج من البحر ... كيف خرج وكيف اختفى عن الأعين؟

وما علاقة هذا الرجل به؟ ولماذا رصد كلَّ هذا المبلغ الضخم لمن يعثُر عليه أو يُدلي بأشياء عنه؟

وما دام قد رصد هذا المبلغ فإنه يكون واثقًا من بقائه حيًّا.

ومرَّ بعضُ الوقت وفي تمام الساعة العاشرة سمع الجميع أزيز جهاز اللاسلكي. فقام «أحمد» ليستقبل الرسالة القادمة من الزعيم رقم «صفر».

من رقم «صفر» إلى «ش. ك. س»

إن الرجل مصري الجنسية، تاجر مخدرات خطير، واسع النشاط، يتستَّر وراء تجارة قطع الغيار، يتعاون مع بعض الشخصيات المسئولة في تجارة المخدرات.

اتَّفق مع القبطان على تهريب شحنة هيروين ومخدرات بعشرة ملايين جنيه وتوصيلها إلى الإسكندرية؛ قمحي اللون، ذو لحية بيضاء خفيفة، في العقد الخامس من العمر، عمل في منطقة البرلس عام ١٩٥٤م، وعاصر أيام معركة البرلس، وهو على دراية كاملة بالساحل الشمالي من العريش حتى السلوم.

الأخبار المؤكدة تقول إن السفينة سليمة تمامًا وغير قابلة للإصابة بأي أعطاب لأنها جديدة والبحر المتوسط لا توجد به شعاب مرجانية حتى تحطم السفينة أو تكسر دفتها كما زعم القبطان لبعض البحارة ... والصحيح أنه جنح بها في هذه المنطقة عمدًا ليتمكن من تهريب المخدرات بالاتفاق مع عصابة أخرى، حيث تخلو هذه المنطقة من الحراسة وشاطئ البحر قريب جدًّا من شاطئ البحيرة المليئة بالجزر والأحراش والبوص والغاب.

إذن المهمة ستكون: البحث عن القبطان المختفي والوصول إلى شحنة المخدرات قبل تهريبها إلى السوق. إن مهمتنا جميعًا هي نشر الخير وتحقيق العدالة وإعلاء القيمة الإنسانية.

المهمة مقصورة على الرجال فقط؛ لأنكم ستنزلون قرية لا مكان للغرباء فيها؛ لأن الناس يعرفون بعضهم، ومن السهل كشف أية شيء غريب أو مثير للفضول حتى «عثمان» سيبقى. السفر غدًا على أول طائرة إلى «مصر».

وعند الوصول إلى هذه القرية اتصلوا بهذا الرقم عند الضرورة «٥٠٠٤٦٠»، وكلمة السر «النورس الغريب».

عذاب ... ولكن!

كانت هذه هي المرة الأولى في حياة الشياطين التي ينزلون فيها إلى بلدة كهذه بتلك الأوصاف المجهولة والغامضة للبحث عن رجل اختفى في بحيرة من أكبر بحيرات مصر. فيها عشرات الجزر التي تحوطها النباتات العشوائية الكثيفة والبوص والغاب والحطب.

إنهم مثل جيش يحارب في صحراء مكشوفة، وحالهم كمن يفتِّش عن إبرة في كومة قش.

وصل الشياطين إلى «القاهرة» في الساعة العاشرة صباحًا، وانتقلوا إلى ميدان «رمسيس» ليأخذوا سيارة إلى بلطيم ثم إلى قرية برج البرلس ... جلس الشياطين الثمانية على مقهى في الميدان يأكلون ويشربون الشاي حتى يحينَ وقتُ تحرُّكِ السيارة.

ركب الشياطين سيارة الأتوبيس وتحركت السيارة في الساعة الثانية عشرة، وأخذ كلٌّ واحد منهم يُشغل نفسه بشيء حتى يقطع الملل ويقضي على هذا الفراغ الطويل، فأخذ «أحمد» يقلِّب صفحات مجلة، بينما أخذ «فهد» يشاهد الزرع والمباني على جانب الطريق، بينما استغرق بقية الشياطين في التفكير أو الاستسلام للنوم. مرَّت ثلاث ساعات، وبدأ الملل يتسرَّب إلى النفوس، وبدأت ملامح الكآبة تظهر على الوجوه مختلطة ببعض غبار الطريق فبدَت الوجوه قاتمة.

أدرك «أحمد» هذا الشعور وهو ينظر من خلف كرسيه إلى باقي الشياطين، وقال: أعرف أن صبركم قد نفد، ولكن فات الكثير ولم يبقَ إلا القليل.

نظر إليه «مصباح» بنصف عين وقال: أخشى أن نكون قد ضلَلْنا الطريق؛ فلم أذهب في رحلة أطول من هذه في حياتي ... أكاد أصرخ من الملل، دَعْني أواصل النوم.

وجاء صوت «خالد» من الخلف في حزن: كأننا ذاهبون إلى الدائرة القطبية الشمالية. قاطعَه «أحمد»: لمَ كلُّ هذا اليأس؟ أنا واثق أنها ستكون رحلة عظيمة بعيدًا عن الزحام

والضجيج، وهي فرصة للتعرف على قطعة من أرض وطننا العربي، لقد قرأت في بعض كتب التاريخ أن بحيرة البرلس هي مهبط آدم وفي جزرها كثير من المعالم الأثرية من أيام قدماء المصريين، وبعض أسماء هذه الجزر غريب مما يدل على أنها قديمة جدًّا، مثل جزيرة «سنجار» وجزيرة «الزنقة» وبركة «أبساك» وجزيرة «الزاوية» حتى قرية برج البرلس نفسها لها تاريخ قديم جدًّا. يقال إنه كان يسكنها راهب قبل ظهور الإسلام اسمه «بارلوس» يتعبَّد في صومعة، وسُميت البلدة باسمه «برج بارلوس» ثم حُرِّفت إلى «برج البرلس».

كان بقية الشياطين يتابعون الحديث باهتمام فلم يكونوا يعرفون أن «أحمد» عنده كل هذه المعلومات ولديه كل هذه الثقافة عن هذه المنطقة النائية التي لم يكونوا يسمعون عنها إلا منذ لحظات قليلة فقط.

كانت الشمس تميل إلى الغروب، والسيارة تسرع تجاه الشمس كأنها تريد أن تلحقها، وفي تلك اللحظة وقعَت أنظارهم على لوحة مكتوب عليها «بلطيم» ١٦ كم، فأحسُّوا بالراحة، وبدأ كلٌّ منهم يتنفَّس نفَسًا عميقًا.

مرَّت دقائق، والسيارة تقطع المسافات وتطوي الأرض ثم تعبر جسرًا يمرُّ فوق مصرف مائي وبالقرب منه بعض البيوت والمحلات ... وسأله «رشيد»: هل هذه هي «بلطيم»؟

أجاب «أحمد»: لا، ليست «بلطيم». إن «بلطيم» مدينة كبيرة.

وفجأة ظهرت لوحة معدنية كبيرة على جانب الطريق مكتوب عليها: «الخاشعة».

فضحك «أحمد»، وقال: ها هي قد أخبرت عن نفسها، إنها بلدة «الخاشعة»، ولحُسن حظِّنا أننا سنصل «بلطيم» مع حلول الظلام.

عندما وصلوا كانوا في حاجة شديدة إلى معلومات مهمة وكثيرة؛ لذلك وقف الشياطين الثمانية يسألون عن قرية البرج كيف سيصلون إليها؟ وهل بها فنادق أو أماكن للنوم؟ وما مدى إمكانية تأجير شقة؟

وكانت كل أسئلتهم يُجاب عنها بمنتهى الوضوح والصراحة، ورغم قلة المعلومات إلا أنها مفيدة؛ فقد أوضحت أمامهم الصورة حتى يستطيعوا التصرُّف بعد وصولهم إلى البرج.

كما عرفوا أن الفندق الوحيد يوجد في مصيف «بلطيم»، وهو شبه مغلق؛ لأن موسم الصيف قد انتهى حتى السيارة لا تصل إلى هناك. وقف الشياطين ينظرون إلى بعضهم، وقال «خالد»: أين سننام إذن؟

نظر «أحمد» تجاه الناحية الأخرى من الطريق، وقال: وجدتُها؟

فانتبه باقي الشياطين، وقالوا: وما هي؟

قال «أحمد»: انتظروا لحظات.

وسار «أحمد» تجاه سيارة أمام مقهى في أول تقاطع طريق برج البرلس مع مصيف «بلطيم»، ووضع يده على «كلاكس» السيارة ثم ضغط عليه، فخرج السائق من المقهى وفي يده كوب شاي، وقال: نعم يا أستاذ.

فقال «أحمد»: المصيف.

فقال السائق بسخرية: يقظٌ أنت أم نائم؟

فقال «أحمد»: لماذا؟

فقال السائق: المصيف يا أستاذ في الصيف فقط لا في الشتاء، ليس هناك مخلوق الآن إلا مَن يعملون في إدارة الفندق.

فقال «أحمد»: أرجوك أوصلنا وسأعطيك ما تطلب!

فقال السائق: سآخذ ذهابًا وإيابًا لأني سأرجع دون ركَّاب، وأشار «أحمد» إلى بقية الشياطين أن يتحركوا ليركبوا السيارة.

سارت السيارة في طريقٍ خالٍ تمامًا من السيارات ومن المارة؛ الهواء البارد يصفع الوجوه فتسري الرعشة في الأجساد، البيوت الصغيرة كأنها أشباح تظهر وتختفي بين أشجار النخيل.

والتفت السائق بوجهه قليلًا إلى «أحمد»، وسأله: ما الذي جاء بكم إلى المصيف في هذا الوقت؟

«أحمد»: نحن أقارب بعض البحَّارة الذين كانوا في السفينة الغارقة. هل خرجوا جميعًا؟

السائق: كلهم خرجوا، منهم خمسة غرقى. أما القبطان فلم يظهر حتى الآن لا حيًّا ولا ميتًا.

«أحمد»: ألَا يعرف البحَّارة شيئًا عنه حين غرقت السفينة؟

السائق: بعضهم يقول إنه نزل مع مساعده واثنين آخرين في قارب نجاة، وبعضهم يقول إنه نزل وحده ثم تبعه البحارة، لقد كان الظلام شديدًا، وكان البحر هائجًا والريح عاصفة.

«أحمد»: وهل لا زال مساعد القبطان حيًّا؟

السائق: لقد تعرَّف عليه البحارة ضمن الغرقى، ويقال إن في رأسه جروحًا، وربما يكون قد صدمَته الأمواج بالصخور، أو سقط على رأسه في الزورق، لكن القبطان هو الوحيد الذي لم يظهر حتى الآن.

«أحمد»: وكيف عرفت هذه المعلومات؟

السائق: إن الأخبار في بلادنا تنتشر بسرعة الريح؛ فبلادنا محدودة وكل شيء يُعرف بسرعة.

وصل الشياطين إلى الفندق في الساعة السادسة مساء. كان الفندق خاليًا من الروَّاد ولا يوجد به إلا العاملون بالإدارة، وعددهم قليل جدًّا، كان البحر يهدر قريبًا من الفندق وكأنه يتأهَّب للهجوم.

توجَّه «أحمد» إلى الاستعلامات، وحجز الغرف، وأخبرهم أنهم أقارب بعض البحارة في السفينة الغارقة، وسأل عن طعام فلم يجد إلا معلَّباتِ السردين وبعضَ الخبز غير الطازج.

وأمام الجوع الشديد لم يجد الشياطين إلا تناولَ المعلبات وشربَ الشاي، ثم أسلموا أجسادهم للراحة حتى يبدءوا العمل في نشاط في اليوم التالي.

النورس الغريب!

في الصباح الباكر، جمع الشياطين أمتعتهم وبحثوا عن سيارة تنقلهم إلى «بلطيم»، فلم يجدوا إلا سيارة نصف نقل تحمل بعض أقفاص الطماطم، فاضطروا أمام الحاجة أن يركبوها.

نظر «أحمد» إليهم، وقال: إنها فرصة جميلة نستمتع فيها بهذه المناظر الطبيعية والكثبان الرملية وأشجار النخيل والتين، انظروا هناك إنه «فنار بلطيم»، وهذا جبل النرجس. إننا في حاجة إلى قضاء إجازة في هذا المصيف الهادئ.

وصلت السيارة إلى «بلطيم» وهناك اشتروا بعض الساندويتشات، وركبوا سيارة قديمة وتكدَّسوا فيها كأنهم «علبة سردين». في تمام الساعة العاشرة كان الشياطين الثمانية في منطقة «بوغاز البرلس»، وكانت مظاهر الحياة بدائية؛ مراكب الصيد الشراعية، والقوارب الصغيرة ذات المجاديف.

الشاطئ الغربي للبوغاز يبدو موحشًا لا يظهر للحياة أثرٌ فيه؛ أشجار الحطب والبوص والغاب تبدو من بعيد كالظلال، تحجب رؤية أجزاء كبيرة من البحيرة.

استدارَت أعين الشياطين تفحص المكان ثم التقَت كلها مع بعضها في لحظة فيها شيء من القنوط أو اليأس ... وأدرك «أحمد» الموقف، فقال: لا بأس نحن نحتاج فقط إلى بعض الإيضاحات، ويا حبذا لو كانت هناك خريطة للبحيرة.

رد «قيس»: وهل توجد لمثل هذه الغابات خريطة؟

رد «أحمد» بسرعة: لا بد أن يكون لها خريطة، ألم أقل لكم في الطريق إنها بحيرة تاريخية، ثم فكَّر لحظة، وقال: الخريطة في التليفون.

فقطب «رشيد» جبينه مستفهمًا: الخريطة في التليفون. ماذا تعني؟

قال «أحمد»: التليفون الذي أمرنا رقم «صفر» أن نتصل به عند الضرورة.

فقال «قيس»: وهل سنجد في هذا المكان تليفونًا؟

قال «أحمد»: سأتصرف، وسنعرف حالًا، لا تتحركوا من هنا حتى آتيَكم.

اتجه «أحمد» إلى القرية لا يدري إلى أين سيذهب، ولكن ما إن لمح أحد الأهالي حتى سأله: من فضلك ألَا تعرف مكان تليفون قريب؟

رد الرجل: لا توجد تليفونات إلا في السنترال.

قال «أحمد»: ومن أين أذهب إلى السنترال؟

رد الرجل: ليس بعيدًا، اتْبَعني وسأوصلك إليه. سار «أحمد» مع الرجل داخل القرية؛ فالشوارع ضيقة، والبيوت منخفضة جدًّا ومتواضعة، لا مظاهر للمدينة فيها.

حاول «أحمد» أن يعرف بعض المعلومات من الرجل، فبدأ يتحاور معه، وسأله: ما هي آخر أخبار السفينة الغارقة؟

الرجل: لقد حطَّمها البحر، وخرجت بعض أجزائها إلى الشاطئ.

أحمد: ألم يخرج من البحر شيء آخر؟

الرجل: مثل ماذا؟

أحمد: أي شيء، لا أقصد شيئًا معينًا.

الرجل: لا شيء ... غير الورق والأكياس وكثير من التفاح والزيتون والأقلام.

أحمد: وهل كل البحارة خرجوا؟

الرجل: نعم إلا القبطان.

أحمد: ألم يعرف أحدٌ شيئًا عنه؟

الرجل: لقد سمعنا في الليلة التالية لغرق السفينة، أن امرأة كانت تجلس على باب بيتها، فرأت رجلًا يسير بخُطًى مسرعة، ثيابه مبللة ويحمل في يده حقيبة سوداء، فصرخت حين رأَته يعدو بهذا المنظر، لكن حين اجتمع الناس لم يجدوا شيئًا.

وقال بعض الناس إنه ربما يكون هو القبطان، لكني لا أصدِّق هذا الكلام.

أحمد: ولماذا؟

الرجل: لأنه لا يعقل أن يخرج القبطان حيًّا ويمشي في شوارع القرية، ألم يكن يستطيع أن يستدل ويستعين ببعض الناس؟ إذا كان قد ظهر أو عرف الناس أنه خرج ... إنها امرأة كبيرة في السن واهمة.

فجاراه «أحمد» في الحديث، وقال: معك حق ... ما الذي يجعله يختفي إذا كان هو القبطان حقًّا؟

نظر الرجل إليه وقال: أليس كذلك؟

كان الرجل قد وقف أمام أحد البيوت، وقال لـ «أحمد»: هنا.

قال «أحمد»: ما هذا؟

قال الرجل: إنه السنترال.

تردَّد «أحمد» قليلًا، وتأمَّل المكان قبل أن يدخل، ربما يكون شرَكًا أو فخًّا نُصب له، ولكنه رأى بعض الأسلاك فوق السطح، وبعض الناس يخرجون، فاطمأن ثم دخل وأعطى للموظف رقم التليفون.

لحظات ثم ناداه الموظف: كابينة رقم ١ يا أستاذ.

شكره «أحمد» ثم دخل «الكابينة» وأغلق الباب خلفه.

كان الجرس على الطرف الآخر ما زال «يرن» ثم رفع السماعة «أحمد» وقال: ألو.

الصوت الآخر: نعم.

أحمد: النورس الغريب.

الصوت الآخر: أهلًا بكم، متى وصلتم؟

أحمد: لقد وصلنا بالأمس ونحن الآن في منطقة البوغاز، نريد بعض الإيضاحات وخريطة للبحيرة حتى نستطيع الاستمرار في المهمة.

الصوت الآخر: سيكون عندكم كل شيء بعد ساعة سيأتيكم رسول ومعه مظروف أصفر فيه كل شيء وحقيبة بها بعض الأشياء الضرورية.

أحمد: كيف سنعرفه؟

الصوت الآخر: إنه متوسط بين الطول والقِصَر، له شارب طويل، يرتدي جلبابًا أزرق وعمامة بيضاء، وسيردد كلمة السر. المهم أين أنتم بالتحديد؟

أحمد: بالقرب من «عوامة» حرس الحدود.

الصوت الآخر: وهو كذلك. سنكون قريبين منكم، انطلقوا بحذر.

أحمد: هل من الأفضل أن نبدأ من داخل القرية؟

الصوت الآخر: لا داعي لذلك ليس في القرية أيُّ شيء. إن عيوننا أكَّدت أن القبطان لم يمكث في القرية أكثر من ساعة ثم اختفى القبطان ربما تجده في البر الغربي في جزيرة من هذه الجزر، سيكون بالتأكيد في قبضة إحدى العصابتَين عن طريق عملائهم في هذه المنطقة، المهم أن نصل إليه قبل أن يعرفوا مكان «البضاعة» وقبل أن تتسرَّب إلى داخل الدولة وتتسبب في تدمير الشباب، والآن هيا إلى العمل. واحذروا الجزر؛ ففيها ينتشر أفراد العصابتَين.

وضع الطرف الآخر سماعة التليفون، وعندما اطمأن «أحمد» إلى أن الخط التليفوني مغلق وضع السماعة وخرج. ودفع ثمن المكالمة، وحين خرج إلى الشارع رأى أمواج البحر تبدو من شارع ضيق، فقصدها، وسرعان ما كان أمام البحر مباشرة ... فسار يمينًا ثم يسارًا تجاه الشاطئ البعيد، ثم تمتم بينه وبين نفسه: إنها حقًّا مهمة صعبة.

وصل «أحمد» إلى حيث كان بقية الشياطين، وأعلمهم بما حدث وبكل ما عرفه من الرجل الذي دلَّه على «السنترال» ... وأصبح واضحًا أن القبطان خرج حيًّا وأنه خرج من البحر ودخل القرية حيث لا يبعد البحر كثيرًا عن البيوت ... فلا حواجز بين البحر وبين البيوت، لكن الشيء الذي ظل غامضًا ... أين أمضى هذه الساعة؟ وماذا كان في تلك الحقيبة؟ وكيف اختفى؟ هل بإرادته أم بغير إرادته؟ هل كان ينتظره أحد؟ أم أنه خُطف بمعرفة إحدى العصابتَين؟

لم تبقَ إلا دقائق على وصول الرسول، كان المكان واضحًا فسيحًا بمنطقة البوغاز، وكفيلًا بأن يكشف للأعين كلَّ شخص قادم من ناحية القرية ... وفجأة ظهر شخص من بين البيوت الصغيرة يرتدي جلبابًا أزرقَ وعمامة بيضاء، في إحدى يديه حقيبة والأخرى تُواري شيئًا تحت كُمِّه الواسع الكبير، وواصل السير حتى اقترب من الشياطين، وبدأ «أحمد» يخطو خطوات قليلة وبطيئة وهو يقترب منه. ويقترب الرجل أكثر وهو ينظر إليه، فتلتقي الأعين فيقول الرجل في صوت خفيض: «النورس الغريب».

مدَّ «أحمد» يده ليُسلِّم عليه ويقدم له نفسه، وسأله عن اسمه، فقال: «عثمان خضر»، ثم وضع الرجل الحقيبة بجوار قدم «أحمد»، ثم سلَّمه المظروف الأصفر.

كان الرجل قويَّ البنية، رغم أنه يبدو في الستين من عمره، وقد بدَا الشيبُ واضحًا في عارضَيه وشاربه. انتحى «أحمد» جانبًا بجوار الشياطين، وفتح المظروف وسحب ورقة كبيرة مطوية فيه ثم فتحها برفق، فوجدها خريطة لبحيرة البرلس محددًا عليها كل الجزر وعدة أسهم تُشير إلى الأماكن والجزر المهمة فيها ... وبعض الورق المدوَّن به بعض الإيضاحات. قرأ «أحمد» الورق في سرعة وبتركيز، ثم ابتسم ونظر إلى رفاقه، وقال: الآن نبدأ العمل، ليس هناك وقتٌ نضيعه.

قال «رشيد»: وكيف سنبدأ؟ ومن أين سننطلق؟

قال «أحمد»: أمامنا طريقان؛ طريق البحر وهو صعب ووعر، ولن يوصلنا إلى شيء، وهو محفوف بالمخاطر، وطريق البحيرة وهو أكثر أمانًا، وأكثر حرية رغم بطئه؛ لأننا سنضطر إلى استخدام «المراكب الشراعية»؛ فليس هناك مراكب آلية تعمل في البحيرة، وليس هناك سوى زوارق المسطحات المائية، وهذه ليس لنا إليها سبيل.

ثم التفت إلى عم «عثمان»، وقال: ومعنا عم «عثمان» سيكون مرشدَنا في هذه الرحلة، والآن يا عم «عثمان» نريدك أن تؤجِّر لنا مركبًا نتجول فيه بالبحيرة فورًا.

ثم أخرج «أحمد» لفافة من الأوراق المالية، وأعطى لعم «عثمان» مائة جنيه، وقال: اشترِ لنا طعامًا يكفي لأربعة أيام، وادفع لصاحب المركب أُجرتَه مقدمًا.

نظر عم «عثمان» إلى النقود في دهشة واستغراب وكأنه لأول مرة يملك بين يديه مائة جنيه، وأدرك «أحمد» هذا، فقال له: تحرَّك يا عم «عثمان» لقد انتصف النهار.

وسار عم «عثمان» لينجز المهمة، ووقف «أحمد» يتبادل الحديث مع بقية الشياطين.

قال «قيس»: أريد أن أعرف كيف سنبدأ؟ إذا كان أمامنا كل هذه الجزر.

ثم أكمل «رشيد»: المهمة بهذه الصورة ستأخذ وقتًا طويلًا، والواضح كما نرى أن الإمكانات بسيطة جدًّا وبدائية ومحدودة.

بو عمير: نريد أن نتَّفق على بداية معينة ننطلق منها.

أحمد: أيها الرفاق، لا داعي لكثرة الكلام الآن قد نكون مراقَبين، وحين ننزل البحيرة ونبتعد نتفق على خطة. المهم الآن أننا في رحلة لصيد الطيور، فهذا موسم صيد الطيور في بحيرة البرلس. وهذا وقتُ هجرتِها من شمال أوروبا، وقد أرسل لنا صاحب التليفون هذه الحقيبة وفيها بعضُ بنادق الصيد ورخصها وبعض علب الذخيرة.

مرت ثلاثة أرباع الساعة، وأقبل عم «عثمان» في مركب شراعي يُشبه مراكب قدماء المصريين يتهادى فوق أمواج البحيرة، ويدفعه عمٌّ «عثمان» بمهارة، واقترب من الشياطين ثم دفع المركب إلى الشاطئ، ثم نزل ينقل الأمتعة والأشياء. وهبط الشياطين إلى باطن المركب وجلسوا، ومرة ثانية دفع عمٌّ «عثمان» بالمركب، ثم فرد شراعه، فاندفع يتراقص فوق أمواج البحيرة.

كان عمٌّ «عثمان» قد جهَّز كلَّ شيء، وأحضر جوالًا من الخبز اليابس، وموقد كيروسين لطبخ الطعام وبعض أواني الطهي، ووعاء فيه «جبن قريش».

ابتسم «فهد» ثم قال: كأننا في العصور الوسطى.

فضحك «باسم»، وقال: لا، كأننا في مجاهل أفريقيا.

رحلة في البحيرة!

أبحر المركب يسابق الريح والأمواج كأنه يريد أن يصل إلى المجهول. أخرج «أحمد» الخريطة ووضعها بين أيدي الشياطين وهم ملتفُّون حولها، كأنها مائدة طعام، ثم قال: الآن أصبح كلُّ شيء واضحًا أمامنا نحن الآن فوق مياه البحيرة والجزر كلها في هذه الخريطة، وأرى أنه من المهم، وتوفيرًا للوقت، أن نبدأ بالجزر المشار إليها بالأسهم، ونضع خطة للنزول إليها.

قال «قيس»: أهي مزدحمة بالسكان؟

قال «أحمد»: ليس فيها سكان، هذه جزر لا يسكنها أحد، وإنما يأوي إليها الصيادون نهارًا لتجفيف شباكهم وإصلاحها، ثم يهجرونها مع قدوم الليل.

خالد: ولماذا لا يقيمون فيها؟

أحمد: من المنظر العام والمعلومات التي وصلَتنا فإنها لا تصلح للإقامة، بالإضافة إلى أن هذا البوص والغاب يُئوي كثيرًا من المجرمين والقتَلة والهاربين من العدالة، وكلهم مسلحون إلى جانب أننا معنا عمُّ «عثمان» الذي يعرف كل شبر في البحيرة.

ثم التفت «أحمد» إلى عم «عثمان» الذي يُمسك بالدفة في ثقة، وقال له: عم «عثمان» أريدك أن تحدد لنا كلَّ جزء في هذه البحيرة وتصفه لنا، وأين يتركز السكان؟

أشار عم «عثمان» بيده إلى الغرب، وقال: أول منطقة مسكونة سنقابلها هي «الشيخة».

فنظر الشياطين إلى بعضهم، ثم قال «أحمد»: «الشيخة»؟

قال عم «عثمان»: نعم، والمنطقة التي تليها هي «مسطروة» ثم «المقصبة».

فقال «أحمد»: والجزر يا عم «عثمان»؟

فاستمر عمُّ «عثمان» في مواصلة حديثه كأنه ينتظر هذه السؤال، وقال: أول جزيرة هي «الزاوية»، وهي صغيرة، ولا يذهب إليها إلا الشباب والطلبة لقضاء يوم؛ لأنها قريبة من البلد ومكشوفة وبالقرب منها جزيرة «سنجار» ثم جزيرة «المقطوعة» ثم جزيرة «أبساك».

قال «أحمد»: وكم نستغرق من الوقت حتى نصل إلى جزيرة «المقطوعة»؟

قال عمُّ «عثمان»: وهو يقلب يده كأنه يقرب الوقت: ساعتان أو ساعتان ونصف.

فقال «أحمد»: أعرف جزيرة «المقطوعة» لا بد أن نضع الخطة قبل حلول الظلام.

مرت ساعتان والمركب يتهادى فوق صفحة الماء والشياطين يأخذون أوضاعًا مختلفة؛ فمنهم من يضع يده تحت رأسه راقدًا، ومنهم من شبَّك أصابعه خلف رقبته وأسند ظهره إلى جانب المركبة، ومنهم مَن استلقى ووضع ساقًا فوق ساق كأنهم فعلًا في رحلة استجمام وترفيه.

ولم يقطع هذا السكونَ طويلًا إلا صوتُ «مصباح» وهو ينادي «أحمد»: «أحمد»، ها نحن قد اقتربنا جدًّا من الجزيرة، أليست هي يا عم «عثمان»؟

عم «عثمان»: بلى ... إنها هي!

نظر «أحمد» إلى الجزيرة ثم أخرج النظارة المكبرة، ووضعها على عينَيه، وأدار نظرةً في أطرافها، ثم قال: إنها تبدو كبيرة يا عم «عثمان» والبوص والغاب يحيط بها بكثافة، كيف سننزل إليها؟

عم «عثمان»: لا تقلق. هناك طرق صغيرة داخل هذا الغاب والبوص يدخل الصيادون منها إلى الجزيرة.

أحمد: إنها تبدو خالية.

عم «عثمان»: نعم هي خالية من الحيات الضخمة والفئران التي تُشبه القطط، وهذا البوص يمتلئ ليلًا بأولاد الليل من القتلة والمجرمين واللصوص الخطرين.

كان «أحمد» يستمع إلى عم «عثمان» بانتباهٍ شديدٍ ويدُه في وسطه، ثم ترك يده تسترسل ... ونظر إلى الشياطين، وقال: أيها الرفاق، لنبدأ الخطة الآن والكل سيشترك في وضعها، فمَن كان عنده اقتراح محدد فليتقدم به.

رفع «بو عمير» يدَه وابتدأ الكلام وقال: أعتقد أننا لن نستطيع أن ننزل الجزيرة ليلًا، وأقترح أن نبدأ من الآن النزول إليها لكي نتعرف على معالمها وينطلق كلٌّ منَّا في اتجاه ويبقى عم «عثمان» في المركب يحرسه.

استأذن «خالد» في الكلام، وقال: المسألة ليست بهذه السهولة، إننا هنا بين فكَّي الأسد؛ عصابة تُخفي القبطان وعصابة أخرى تبحث عنه، ولا يمكن لهم أن ينزلوا الجزيرة أثناء

النهار بهذه السذاجة، ربما يكونون الآن داخل هذه الكتل الضخمة من الغاب والبوص، وربما يكونون في مكان آخر يبعد عن هنا لكنْ لهم عيون هنا وهناك، إن البحث بالنهار والنزول إلى الجزيرة سيكشفنا للجميع، وربما نقع في مصيدة مُحكمة فتكون نهايتنا في بحيرة البرلس.

قال «مصباح»: وماذا ترى؟ وفيمَ تفكر؟

فاستمر «خالد» قائلًا، وكأنه كان يرتب كلَّ شيء في رأسه: أرى أن ننشغل الآن بصيد الطيور حتى نلفت الأنظار إلى أننا جئنا لصيد الطيور فنعطي للجميع الأمانَ ثم أثناء الليل ننزل إلى الجزيرة في حذر ونواصل المهمة.

نظر «أحمد» إلى الجميع وهو يتأمَّل وجوههم بنظرة شاملة: ما رأيكم في وجهة نظر «خالد»؟

هزَّ الجميع رءوسهم بالموافقة.

فقال «أحمد»: إذن فلنأكل أولًا ثم نبحث عن الطيور المهاجرة.

تناول الشياطين طعامهم، وظل «أحمد» يتسلَّى بكِسَر الخبز اليابس وبعض الجبن وهو يتطلع إلى الأفق حيث الشمس تتأهب للرحيل وتُلقي بثوبها الذهبي على صفحة المغيب، وطيور النورس البيضاء تحوم فوق مياه البحيرة تلتقط الأسماك الصغيرة.

في تلك الأثناء كان «باسم» يقف في الناحية الأخرى يتطلع إلى الوجه القائم من البحيرة والأفق الممتد حتى كأنه يلامس ماء البحيرة، ثم قال في شبه غيبوبة: تذكِّرني هذه المشاهد وما نحن فيه بالقرصان الذي أكل الحوتُ الأبيضُ ساقَه، وظل يفتش عنه في البحار والمحيطات حتى عثر عليه ... لكنهما انتقمَا من بعضهما في النهاية.

وفجأة تنبَّه «أحمد» من غفوته ونادى عمَّ «عثمان» قائلًا: عادة متى يبدأ الصيد؟

عم «عثمان»: أول الليل وآخره.

أحمد: وما هي أنواع الطيور الموجودة هنا؟

عم «عثمان»: أنواع كثيرة، منها: البط، والشرشير، والغر، والحمران.

أحمد: إذن فلنجهز بنادق الصيد ونحشوها بالطلقات ... سيكون صيدًا ممتعًا وطعامًا لذيذًا نصطاد أول الليل ثم ننزل بالصيد إلى الجزيرة نوقد النيران لنشويَه.

رشيد: أراك قد نسيت ما جئنا من أجله، وتخيلت أنك فعلًا في رحلة صيد.

أحمد: لا لم أنسَ ولكن هذه هي الخطة، سننزل فعلًا إلى الجزيرة نبحث عن حطبٍ جافٍّ لنشويَ به الطيور ... تُرى هل يشك أحد في هذا؟

خالد: نرجو ذلك!

باسم: أودُّ ألَّا نكونَ صيدًا ثمينًا قبل أن نصطاد شيئًا.

أحمد: أهذه أول مرة؟ إننا لن نصل إلى الصيد المنشود إلا بهذه الطريقة، والآن ليرتديَ كلٌّ منكم ملابس ثقيلة؛ لأن الجوَّ ستشتدُّ برودته ليلًا.

مرَّت الدقائق بطيئة، والليل يُلقي بستائره السوداء على الوجود والشياطين يتحركون بالقرب من الجزيرة يبحثون عن الطيور، ورياح خفيفة تحمل صوتَ طيور تتهادى إلى السمع من بعيد ... لكن أين؟

«أحمد» بصوت خفيض: عم «عثمان» حدِّد لنا مكان هذه الطيور.

عم «عثمان»: إنها فوق الريح، أصواتها تأتي مع الريح، ولن تستطيع أن تذهب إليها بالشراع؛ لأجل هذا سنذهب إليها بالمدراة، وبدون إحداث صوت حتى لا تطير.

وبدأ المركب يسير ببطء تجاه صوت الطيور في هذا الظلام الخفيف، إنه ليس كثيفًا بدرجة شديدة، ونجوم الليل من بعيد تُرسل أنوارًا من أشعتها تجعل العين تحدد الأشياء.

لحظات والمركب يقترب شيئًا فشيئًا من الطيور التي تبدو كأنها قبعات سوداء تعوم فوق سطح البحيرة. عم «عثمان»: هل ترون شيئًا؟

باسم: إني أرى أشياء سوداء فوق سطح الماء.

رشيد: وكذلك أنا ... ما هذا؟

عم «عثمان»: اخفض من صوتك حتى لا تطيرَ، إنها طيور الشرشير والغر!

أحمد: أنتم الآن لستم في حاجة إلى تحديد الأهداف. استعدوا لإطلاق بنادق الصيد. هيَّا واحد ... اثنان ... ثلاثة ... وانطلقَت رصاصاتُ البنادق لتُحدث دويًّا هائلًا في سكون البحيرة، فأخذ يتردد صدى الصوت مع تلاطم أمواج البحيرة، وارتفع صوت الماء من ثورة الطيور وهياجها، فمنها ما يطير ومنها ما يسقط.

وأخذ عمُّ «عثمان» يدفع المركب تجاه موقع الطيور. ونظر الشياطين في الماء بحثًا عن الطيور التي أطلقوا عليها البنادق. وفجأة، صاح «خالد»: ها ... لقد أصبناها ... هذه واحدة.

وصاح «رشيد»: وهذه أخرى ... وهناك ثالثة.

وقال «خالد»: وهذه واحدة أخرى تبدو في الماء تحاول الهرب ... إنه لصيد ثمين.

وجمع الشياطين الطيور من الماء وهم في سعادة بالغة ... والتفت «أحمد» إلى عم «عثمان» وهو يقول له: نريدها وليمة يا عم «عثمان».

فقال عم «عثمان»: لا تشغلوا بالكم بهذه المهمة ... فهي مهمتي.

نظر «أحمد» في ساعته الفوسفورية، فوجدها تقترب من الثامنة، فنادى على بقية الشياطين: الآن جاء وقت جمع الحطب ... هيَّا إلى الجزيرة.

انشغل عمُّ «عثمان» في ذبح الطيور وتنظيفها، واجتمع الشياطين في أسفل المركب، وأخرج «أحمد» بطارية إضاءة صغيرة من جيب الحقيبة، وبسط أمامهم الخريطة، وأضاء البطارية وسلَّطها على الخريطة، وأشار إلى الجزيرة، وقال: الآن نبدأ المهمة ... سننزل الجزيرة من الجهة الشرقية وننطلق إلى الجهة الغربية من الشمال والجنوب؛ فالجزيرة تبدو في وسطها خالية تمامًا. لا أثرَ لشيء على أرضها إلا شُجيرات صغيرة؛ ولذا سيقتصر البحث والتفتيش في جوانبها التي يكثر بها الغاب والبوص.

«بو عمير»، و«مصباح»، و«فهد» من الشمال، و«خالد»، و«قيس»، و«باسم» من الجنوب، وأنا، و«رشيد» باتجاه الغرب ... والإشارة نقيقُ الضفدع، البطاريات تُضاء إلى أسفل إلى محل الأقدام فقط. لكن احترسوا البوص والغاب كفيل بأن يواريَ دولة بأكملها ... الرجوع بعد أربعين دقيقة. فلنبدأ التحرك الآن.

في الليل!

سار الشياطين وتفرَّقوا كلٌّ إلى هدفه؛ ليقوموا بعملية مسح شامل للجزيرة، اللحظات تمرُّ عصيبةً، كلُّ واحد من الشياطين يدقق السمع ويُنصت بشدة كلما سَمِع أيَّ صوت أو حركة.

ابتعد الشياطين عن بعضهم وتفرقوا داخل البوص والغاب وشجيرات الحطب الكثيفة.

وفجأة أحس «أحمد» بيد ضخمة تُمسك به من ظهره وصوت غليظ يأمره بالتوقف: قف مكانك لقد وقعتم في أيدينا، مَن أنتم؟ انطق بسرعة!

التفت «أحمد» ليرى هذا الرجل ويتبيَّن ملامح هذا الشخص الضخم، لكن الظلام كان يُخفيها، ولحيته الثائرة الكثيفة تجعل رأسه كبيرًا وفظيع المنظر، ثم أحس «أحمد» بجسم صُلب أسفل ذقنه فالتفت ليرى رجلًا ضخمًا كالثور وفي يده بندقية، وهزَّ الرجل «أحمد» بطرف البندقية هزة قوية، وقال له: انطق مَن أنتم؟ وما الذي جاء بكم إلى هذا المكان وفي هذه الساعة؟

تمالك «أحمد» أنفاسه وردَّ في ثبات: نحن طلبة من كلية الزراعة جئنا في رحلة صيد، وأنتم كما ترون الجو شديد البرودة، فنزلنا نبحث عن خشب أو حطبٍ جافٍّ نُشعله ونشوي عليه ما صدناه.

فقال الرجل: هل معك أحد آخر؟

رد «أحمد»: طبعًا معي زملائي.

فقال الرجل الذي حمل البندقية: أنت كاذب.

فرد عليه «أحمد»: ولماذا؟ لا شيء يستحق الكذب.

فقال الرجل: غادروا هذا المكان فورًا، وإلا ستمزَّقون وسنواريكم في هذا البوص، انظر كل شبر في هذا البوص فيه رجل يحمل بندقية. فحاول «أحمد» أن يتغابى عليه ليعرف منه شيئًا: ولماذا؟ هل هناك حرب؟

فزأر الرجل وقال: حرب، ماذا تقول؟ أتهزأ؟ لولا أنكم طلبة لواريناكم داخل هذا البوص ... انصرف من أمامي.

وحاول «أحمد» أن يفتح حوارًا، ولكن البندقية كانت مصوَّبة إليه، بينما الرجل الضخم ما زال ممسكًا بملابسه من ظهره، ثم قال: اسمع. العيون عليك حتى تخرج من هذا المكان أنت وزملاؤك وإلا ستكون نهايتكم هنا الليلة.

رجع «أحمد» ويده تتحسَّس مسدسه في الظلام. ولكن كان على يقين بأن استخدام السلاح فيه مخاطر كثيرة للجميع.

في نفس اللحظة كان «بو عمير» و«مصباح» و«فهد» يتسللون من خلال أعواد البوص كأنهم عصافير رشيقة، وفجأة توقف «بو عمير»، وأشار بيده إلى رفيقَيه أن يتوقفَا ثم مال عليهما، وقال: إني أسمع تمتمة كلمات على بُعد خطوات. انتظرَا حتى أستكشف الأمر.

تسلَّل «بو عمير» في خفة كأنه يتجرد من ملابسه لا من أعواد الغاب والبوص حتى اقترب من مصدر الصوت، وسمع عدة أشخاص يتكلمون فيما يُشبه الهمس، لكن سكون الليل يُفشي سرَّهم.

اقترب «بو عمير» أكثر، فسمع أحدهم يقول للآخر: أشعل لي السيجارة، إن الضيف في أمان.

فقال له الآخر: كيف والدنيا قد انقلبت عليه، وأنا متأكِّد أن أصحاب البضاعة موجودون الآن في البحيرة يبحثون عنه، إنهم لن يتركوه.

فقال الرجل الأول: لقد نقلوه الليلة إلى جزيرة «أبساك» وعليه حراسة شديدة. الجن نفسه لن يستطيع أن يصل إليه.

فقال رجل ثالث: لقد سمعت أن أصحاب البضاعة معهم طائرة هليكوبتر.

رد الثاني: إن أصحاب البضاعة من بينهم شخصيات كبيرة.

رجع «بو عمير» في سرعة خاطفة يتسلل من بين البوص والغاب ثم وضع يدَيه على فم «مصباح» و«فهد» كي لا يتكلما. ثم ابتعدوا سريعًا حتى اقتربوا من المركب.

وفي نفس الوقت وجدوا «رشيد» و«أحمد» قد وصلوا إلى المركب: فاتجه «أحمد» إلى «بو عمير»، وسأله: أين «خالد» و«قيس» و«باسم»؟

بو عمير: إننا لم نقابلهم. لقد وجدت ...

ولم يكد يُكمل الجملة حتى سَمِع الجميع صوت طلق ناري، فأسرع «أحمد» يجري ناحية الجنوب تجاه بقية الشياطين، وحين التقى بهم أوشكوا أن يُخرجوا مسدساتهم، ولكنه طمأنهم بإشارة من ضوء البطارية.

حين وصل «أحمد» إليهم كان «خالد» يلهث من شدة التعب والجري. فقال له «أحمد»: ماذا حدث؟

فقال «خالد»: لا شيء. غير أن «قيس» أحدث صوتًا قويًّا داخل البوص حين سقط، فسمعنا صوتًا غليظًا ينادي: قف مكانك ... ثم سمعنا طلقة كالبرق تمرُّ من فوق رءوسنا.

فقال «أحمد»: هيَّا بنا فورًا ... لا بد أن نخرج من هذه المصيدة ... إن كل هذا البوص مملوء بأفراد العصابتَين ... لا بد أن نكون خارج هذه الدائرة فورًا ... لم يكن «أحمد» قد عرف شيئًا من «بو عمير» عمَّا حدث حتى هذه اللحظة ... وحين خرجوا إلى المركب وغادروا الجزيرة إلى عرض البحيرة بعيدًا عن هذه المصيدة، صاح «بو عمير»: لقد وجدت «النورس الغريب».

دُهش الجميع، وقالوا في صوت واحد: ماذا؟ وأين؟ فقال «بو عمير»: إنه الآن في جزيرة «أبساك».

أحمد: وكيف عرفت؟

بو عمير: هذا البوص مملوء بالأسرار ... لقد سمعت بعض الرجال يتكلمون داخل البوص، وسمعت أحدهم يقول للآخر: إنهم نقلوه إلى جزيرة «أبساك» وعليه حراسة شديدة، وهؤلاء من العصابة التي تُخفيه، وأرجح أن العصابة الأخرى منتشرة في البحيرة ولها أفراد داخل هذا البوص.

باسم: أقترح أن ننزل ونحاصر هؤلاء الرجال ونسوقهم رهائن حتى نعرف مكان القبطان، وبهذا ننقص مقاومة العصابة.

أحمد: مخاطرة غير مأمونة ربما نصطدم بغيرهم، ونقضي الليل كله في معركة دون أن نجنيَ شيئًا. أقترح أن نتوجَّه الآن إلى جزيرة «أبساك»؛ فالموجود من أفراد العصابتَين هنا لن يغادر الجزيرة قبل طلوع الفجر، وبذلك نكسب الوقت ويكون هؤلاء كلهم بعيدين عن منطقة الصراع، يا عم «عثمان»: لقد اقتربت ساعة أكل الصيد، لقد كنَّا نريده مشويًّا، الآن اجعله مطبوخًا، وأكثر لنا الشوربة، حتى تبعث فينا الدفء والحيوية؛ فإننا مقبلون على صيد ثمين.

نظر «أحمد» في ساعته. كانت تقترب من الحادية عشرة. ثم قال لعم «عثمان»: افْرِد الشراع وانطلق إلى جزيرة «أبساك».

انطلق المركب يشق الماء ويدفع الأمواج الصغيرة، كان روح المغامرة قد سرَت فيه أيضًا، وانهمك عم «عثمان» في إشعال الموقد وإعداد الطعام، بينما أخرج «أحمد» الخريطة وصوَّب إليها ضوءَ البطارية، وأشار بقلمه إلى جزيرة «أبساك»، ثم قال: إنها أكبر قليلًا

من جزيرة «المقطوعة» التي كنَّا فيها، ولأجل هذا ستكون المهمة صعبة، وسيكون الرجال من أفراد العصابتَين كثيرين ومنتشرين في كل شبر من هذه الجزيرة. لكن عندي أمل كبير في إنجاز المهمة في وقت قصير لأسباب، منها: كثافة البوص والغاب، وانتشار العصابة بصورة فردية، أي إنهم أفراد منتشرون، فمن السهل صيدهم واحدًا واحدًا. وكذلك الظلام كثيف نستطيع أن نتحرك فيه بسرعة وبخفة؛ فنحن مدربون على الخوض في مثل هذه الصعوبات، وما هو أصعب منها، كذلك معنا مسدساتنا الكاتمة للصوت وهي أنسب شيء في هذه الأماكن المحدودة.

صمت قليلًا ثم قال: سنبدأ النزول إلى الجزيرة في الساعات الأولى من الفجر، ونتسلل بحذر لنصل إلى القبطان قبل شروق الشمس، وإلا فلن نعرف بعد ذلك ما الذي يمكن أن يحدث؟

قطار الليل يمضي بساعاته والمركب يطوي صفحة الماء مسرعًا إلى جزيرة «أبساك»، ورائحة اللحم تفوح، والبطون الخاوية تتوق إلى الطعام الدافئ في هذا الليل البارد.

الساعة تقترب من الواحدة بعد منتصف الليل، عم «عثمان» يكشف أواني الطعام كي تبرد، بينما بعض الشياطين أخذَتهم سنةٌ خفيفة من النوم اللذيذ تحت هذه السماء المظلمة بعيدًا عن الضجيج والزحام في صمت لا يقطعه سوى صوت المركب وهو يدفع الماء.

عم «عثمان» ينادي «أحمد»: لقد اقتربنا من جزيرة «أبساك»، باقٍ من زمن الوصول حوالي ثلث الساعة.

نظر «أحمد» إلى الجزيرة التي تبدو للعين كأنها سفينة ضخمة سوداء اللون في هذا الليل المظلم.

دعا «أحمد» عمَّ «عثمان» إلى التوقف، وأيقظ «أحمد» الشياطين النائمين، وجهَّز عمُّ «عثمان» الطعامَ، وانقسموا إلى مجموعتَين؛ فإن مساحة المركب لا تكفي لأن يجلسوا متحلِّقين جميعًا حول أواني الطعام.

رشيد: أريد بعض الشوربة الدافئة مقدمًا.

باسم: ألَا تملأ معدتك بالطعام أولًا.

خالد: إنه يريد أن «يسخن» المحركات حتى تهضم جيدًا؛ فضحك الجميع. ثم قال «أحمد»: هل ترون الطعام؟ إننا نأكل في الظلام!

فقال «بو عمير»: الشيء الوحيد الذي نراه ولو كان تحت الماء هو الطعام، إن الإنسان وقت الجوع ينسى كلَّ شيء إلا الطعام.

قال «باسم»: فليحافظ كلٌّ منكم على نصيبه حتى لا يضلَّ الطريق إلى بطن أخرى في هذا الظلام. فضحك الجميع، وامتدَّت الأيدي تتشابك فوق الطعام. لحظات تمرُّ والأيدي تعبث في الأواني ثم يفرغونها من الطعام، فتكلم «قيس» بعد أن أنهى تناول الطعام: أول مرة في حياتي آكل بهذا النهم.

قال «بو عمير»: أكلتُ كأنني لم آكل منذ عام.

وقال «باسم»: شكرًا يا عم «عثمان»، إنك لطباخ ماهر.

أحمد: فلنغسل أيديَنا ونتأهَّب.

فهد: وأين سنغسل أيديَنا؟

أحمد: في الحمام الكبير.

فهد: وأين الحمام الكبير هذا؟

أحمد: على جانب المركب، في ماء البحيرة.

ضحك الجميع، وانحنوا ليغسلوا أيديَهم في ماء البحيرة، ثم شربوا الشاي، ثم قال «أحمد»: الساعة الآن تقترب من الثانية، سنقترب من الجزيرة في حذرٍ شديد ودون إحداث ضجيج، وبهذا تكون الساعة قد أوشكَت على الثانية، ويكون أمامنا حتى طلوع الفجر ساعتان، نستطيع أن ننجز فيها المهمة؛ فالجزيرة كما تبدو لا يستغرق البحث فيه أكثر من ساعة، ربما أقل … ممنوع استخدام البطاريات، الإشارة نقيق الضفدع، ومَن يشعر بالخطر أو يحتاج إلى مساعدة فليُحدث صوتًا لنقيق الضفدع.

انطلاقنا سيكون على مراحل، سأنطلق أولًا لمسافة عشرة أمتار ثم أتوقَّف، ثم تتبعوني واحدًا بعد الآخر، وسننطلق في اتجاه واحد حتى نقلل من فرص التعامل معهم والاحتكاك بهم. فلنهبط إذن من هذا «السرب الصغير».

نزل الشياطين وتجمَّعوا عند حافة الماء، فهمس «أحمد»: سأنطلق من هذه الناحية باتجاه الغرب ثم اتبعوني بعد لحظات.

انطلق «أحمد» في حذر، وابتعد عن الشياطين قدر عشرين خطوة، ثم توقَّف وانحنى، وقبع داخل البوص ينتظر بقية الشياطين، واستدار ينظر في الظلام، وفجأة سقط على الأرض. لقد ظهر شبح ضخم، وعاجَلَ «أحمد» بضربة قوية فسقط بين البوص فأحدث صوتًا في نفس اللحظة. كان «بو عمير» قد اقترب، فرأى الشبح الضخم في الظلام، فأيقن على الفور أن «أحمد» في خطر، فاقترب منه، وفي لمح البصر كان قد سدَّد له ضربة خاطفة، فانهار الشبح الضخم، فتكوَّم على جانبه، فقفز «بو عمير» بكل قوته، وأعطاه ضربة أخرى فتمدَّد فاقد الوعي.

وفي تلك اللحظة وصل «خالد» ثم بعده «قيس» ثم بقية الشياطين، ورأوا «أحمد» وهو يتحسس رأسه، وهذه الجثة الضخمة إلى جواره. فقال له «بو عمير»: أتشعر بألمٍ؟ فلترجع أنت وتبقى مع عم «عثمان» تنتظرنا في المركب.

قال «أحمد»: لا، إنني على ما يرام، إنها آلام خفيفة ... وتحسَّس «أحمد» أشياءه ومسدسه. لكن الطين والوحل كان قد لطخ ثيابه.

أدرك «بو عمير» أن الضربة كانت قوية، فقال لـ «أحمد»: تأخَّر أنت وسأتقدم أنا ... اتبعوني كما اتفقنا.

انطلق «بو عمير» داخل البوص يتحسس طريقه، وفجأة سمع صوت همس، فاقترب من مصدره حتى أصبح على مقربة مترين أو أقل، فسمع صوتًا ... يقول: إن البوص يتحرك كثيرًا الليلة، رغم هدوء الريح.

فردَّ عليه صوت آخر: إن أفراد العصابة الأخرى منتشرون في كل أنحاء البحيرة، ويتحركون في كل مكان، لكنهم لن يصلوا إلى شيء. إن الضيف في «البركة السرية».

لكن «بو عمير» انشغل عن سماع بقية الحديث بشيء آخر؛ فقد أحسَّ بجسم صلب في مؤخرة رأسه، ثم سمع صوتًا هامسًا يقول له: لا تلتفت وإلا هشمتُ رأسك، تراجع ببطء.

تراجع «بو عمير» خطوتين، وقبل أن يتمكَّن من الالتفات أحسَّ بضربة قوية وهوى إلى الأرض، وقبل أن يُغمى عليه، أحدث صوت نقيق الضفدع الإشارة المتفق عليها بين الشياطين. في ثوانٍ كان الشياطين في طريقهم إلى الصوت، وفي نفس اللحظة سمع الرجل البوص يتحرك في قوة فأسرع بالهرب.

لم تمرَّ لحظة حتى وصل الشياطين إلى مكان الصوت، وأدركوا «بو عمير» قبل أن يقضيَ عليه ذلك الرجل ومَن معه. أضاء «أحمد» بطاريته وقرَّبها من وجه «بو عمير» الذي كان يتألم، وأشار لهم اتجاه الرجل الذي فرَّ هاربًا منه.

وبدأت المطاردة في هذا الظلام الموحش المخيف؛ إنها مطاردةٌ تُشبه مطاردة الذئاب لفريسة تحاول الوصول إليها عن طريق حاسة السمع. كان «أحمد» قد تأخَّر عند «بو عمير» ومعه «باسم» حتى يُفيق، ولما أفاق «بو عمير» قال لـ «أحمد»: القبطان قريب في هذه الجزيرة.

أحمد: وكيف عرفت ذلك؟

قال «بو عمير»: لقد سمعت بعض أفراد العصابة يتهامسون ويقولون إنه هنا في «البركة السرية».

فقال «أحمد»: وأين هذه البركة؟

ردَّ «بو عمير»: آه، لا أدري. هذا ما سمعتُه قبل أن يضربني ذلك الرجل في الظلام ويهرب هو ومَن معه.

أحمد: ولماذا يهربون؟ لا. إنهم لم يهربوا، إنهم أسرعوا إلى رئيس العصابة يخبرونه بقدوم العصابة الأخرى. يجب أن نسابق الزمن قبل أن تتعقَّد الأمور أكثر. لتبقَ هنا في مكانك.

بو عمير: لا. ولماذا أبقى؟ لا بد أن أصل إلى هذه «البركة السرية». سار «أحمد» ومَن معه في نفس اتجاه الشياطين، ومضَت المطاردة في هذا الليل داخل هذه الكُتَل الضخمة من البوص والغاب.

كان «قيس» قد توقَّف ثم قال لمن معه: لقد توقف صوت الأقدام، وأظن أنهم رابضون في مكان ما. علينا أن ننطلق في شبه دائرة ثم نُطبق عليهم. وكان «أحمد» قد وصل مع «بو عمير» و«باسم»، واشتركوا معهم في الخطة وقال «أحمد»: نريد أن نتمكَّن من هؤلاء قبل أن يصلوا إلى بقية أفراد العصابة فينبهوهم إلى وجودنا.

وأمسك كلٌّ منهم بمسدسه الكاتم للصوت. لقد بدأت اللحظات الحرجة؛ البوص والجزيرة كأنهما ساحة قتال، أفراد العصابتَين ينتشرون في كل مكان، كلٌّ منهم يحمل سلاحه ويتربص بالآخر من أجل كلمة. كلمة بعشرة ملايين من الجنيهات، كلمة من ذلك القبطان تُخبر أيًّا منهم عن مكان المخدرات، فهو الوحيد الذي يعرف مكانها؛ لأنه الوحيد الذي أخفاها.

البركة السرية!

بدأ الشياطين الانتشارَ في شبه دائرة، ومرَّت اللحظات الحرجة. وفجأة، سمع «رشيد» صوتًا خافتًا من خلال البوص يقول: اذهب إلى «الريس»، وأخبره أن العصابة الأخرى قد وصَلت الجزيرة، وتقترب من «البركة السرية»، حاول معرفة المكان واقْضِ عليه قبل أن يَصِل أحد إليه.

كان مع «رشيد» في هذه اللحظة «فهد» الذي أشار إليه «رشيد»، ففهم «فهد» الإشارة ومعناها متابعة الرجل والتمكُّن منه قبل الوصول، ودار «رشيد» من خلف الرجل الآخر، وفي لحظة كان فوق رأسه واضعًا مسدسه في أُذُنه قائلًا له: ألقِ سلاحك.

فألقى الرجل سلاحه، فأمسك «رشيد» بذراع الرجل، وبحركة سريعة ألقاه على وجهه فوق الأرض، وربض فوق ظهره كالأسد، وبعد ثوانٍ قليلة كان «أحمد» ومن معه من الشياطين قد وصلوا إليه، فوجدوه متمكنًا من هذه الفريسة.

ربض «أحمد» قريبًا من الرجل على ركبتَيه، وقرَّب مسدسه من جبهة الرجل، وقال له: إن هذا المسدس كاتم للصوت، بمعنى في ثانية تكون في العالم الآخر دون أن يدريَ بك أحد. ما رأيك؟

ردَّ الرجل وهو يتكلم بصعوبة: وماذا تريد؟

أحمد: أين «البركة السرية»؟

الرجل: «البركة السرية»؟ ما معنى «البركة السرية»؟

فقال «أحمد»: ألَا تعرف «البركة السرية»؟ إذن ... ثم حرَّك «أحمد» خزانة المسدس.

فقال الرجل: لا. أرجوك لا تقتلني أنا لا أعرف. حقيقة.

أحمد: إذن اعتبر نفسك من الأموات. واحد. اثنان. ثلا ...

فصاح الرجل: لا. انتظر سأقول، إنها في الجهة الغربية من الجزيرة، إنها حفرة في طرف الجزيرة في منطقة كلها محار وأحجار صغيرة، محاطة بكُتَل صغيرة من البوص والغاب.

فهزَّه «أحمد» بالمسدس في عنف وهو يقول: كم عدد الحرس هناك؟

قال الرجل: هناك ثمانية حول البركة.

فهزَّه «رشيد»: أين يختبئون؟

ردَّ الرجل: داخل هذه الكتل الصغيرة.

قال «أحمد»: وأين القبطان؟

الرجل: القبطان داخل البركة في الغرفة السرية تحت الأرض ومعه الريس.

سأله «رشيد»: وكلمة السر؟

قال الرجل: كلمة السر «الليلة عيد».

كان «فهد» يتعقَّب الرجل الآخر في هذا الظلام الدامس ... والرجل يحاول أن يصل إلى رئيس العصابة ليُخبرَه.

وكان «رشيد» قد أخبر «أحمد» بما حدث وأن «فهد» يطارد الرجل الآخر ليتمكن منه قبل أن يصل إلى رئيس العصابة في مقرِّه.

أوثق الشياطين الرجل جيدًا وكمَّموا فمه وتركوه بين البوص، وأخذوا سلاحه وأسرعوا للحاق بـ «فهد» والرجل ... كان الرجل يقفز وسط البوص كأنه أرنبٌ بريٌّ، و«فهد» يتبعه بكل همة ونشاط فقد دبَّت فيه روح المغامرة، فأخذ يقفز كالأسد خلف هذا الأرنب.

كان الظلام شديدًا، ولا أحد يرى أحدًا، وإنما يستمع لحركته ويحدد المكان عن طريق الصوت.

وكان الرجل قد دخل منطقة أمان للعصابة، وكانت قفزاته بهذه الجرأة والسرعة تُوحي بأنه قريب من المقر السري للعصابة. وبعد لحظات استطاع الشياطين أن يُدركوا «فهد» وهو يحاول اللحاق بهذا الرجل، لكنهم وصلوا بعد فوات الأوان. إن الرجل كان قد دخل منطقة الحراسة، وسرعان ما تنبَّه الحارس، وقال: مَن هناك؟

قال الرجل وهو يلهث: أنا ... سعفان.

ردَّ الحارس: سر الليل؟

قال الرجل وهو يلهث: الكلمة «الليلة عيد».

قال الرجل له بعد أن وصل إليه: خذوا حِذْركم ... احترسوا؛ فإن العصابة الأخرى قد وصلَت، لقد ضربت أحدهم في الجزيرة. أريد أن أنبِّهَ «الريس».

قال له الحارس: انتظر مكاني حتى أُبلغَه.

كان الشياطين يستمعون إلى هذا الحوار في الظلام بين كُتَل البوص. لقد أصبحوا إذن أمام المقر السري لهذه العصابة، وأصبح القبطان على بُعد خطوات منهم. لا بد إذن من اقتحام هذا المقر والوصول إلى القبطان قبل أن تعرف العصابة الأخرى مكانَه وتتعقد الأمور أكثر، وقبل أن يعرف أحد مكان المخدرات.

أدرك «أحمد» أن الأمر يحتاج إلى مغامرة، فلا بد من التعامل مع الحرس فورًا والقضاء عليهم حتى يخلوَ الجو للوصول إلى القبطان.

إن الشياطين ثمانية والحرس ثمانية، وهذا الرجل الذي جاء ليُبلغ رئيس العصابة تسعة، لا بد من التصرف فورًا قبل أن يعود الحارس الثامن من «البركة السرية»، وفي لمح البصر فكر «أحمد»، واهتدى إلى خطة سريعة لاقتحام المقر السري لهذه العصابة والوصول إلى القبطان.

طلب «أحمد» من الشياطين الانتظارَ لحظاتٍ قليلة حتى يعود ويحدد أماكن المراقبة والحرس. غاب «أحمد» لحظات داخل البوص، ودار حول مقر العصابة ليتأكد من وجود الحرس. ووجد الأمر كما قال الرجل المكمَّم، فعلًا ثمانية رجال يحرسون المقر من كل ناحية، ولكلٍّ منهم كتلة من البوص يختبئ فيها كأن الطبيعة زرعَتها بأيديها …

وعاد «أحمد» بعد أن حدد أماكن الحرس وقال لباقي الشياطين: إن رجال العصابة منتشرون حول المقر، وبين كل فرد والآخر مسافة تكفي للتعامل مع كل فرد على حدة. فكل واحد منَّا عليه فردٌ من الحرس وأنتم تعرفون كلمةَ سر الليل. لا بد أن نتخلص منهم سريعًا وفي هدوء، ثم نقتحم «البركة السرية».

انتشر الشياطين سريعًا حول المقر كأسرع ما يكون الانتشار، وأخرج كلٌّ منهم خنجرَه واستعد للهجوم، واقترب «فهد» من الرجل الموكل به، وأحدث صوتًا قويًّا داخل البوص. فقال الرجل: مَن هناك؟

قال «فهد»: أنا سعفان.

قال الرجل: كلمة السر.

قال «فهد»: «الليلة عيد».

فاقترب الرجل من «فهد»، وفي نفس اللحظة كان «فهد» يقترب في سرعة من الرجل. قال له الرجل مطمئنًّا واثقًا أنه «سعفان»: ماذا جاء بك؟

وفي لمح البصر كان «فهد» قد سدَّد إليه ضربة قوية، فسقط في قوة على ظهره، ثم هجم «فهد» عليه كالأسد وضربَه ضربة قوية، فتراخَت يداه فاقدًا وعيَه، وتقدَّم «قيس» من الرجل الموكل به وكذلك هزَّ البوص فتنبَّه الرجل، وقال: قف مكانك، مَن هناك؟

غيَّر «قيس» من صوته، وقال: أنا «سعفان».

قال الرجل: وما هي كلمة سر الليل؟

ردَّ «قيس»: «الليلة عيد».

خرج الرجل من بين كتلة البوص وهو يكلِّم «قيس» ظنًّا منه أنه «سعفان»، وقال: وماذا هناك؟

كان «قيس» قد أخذ وضع الاستعداد ليفاجئ الرجل، وفي حركة خاطفة ضرب الرجل فوقع على الأرض، وفي سرعة خاطفة كان «قيس» فوقه والرجل بين ساقَيه كالعصفور ساقطًا على الأرض بلا حراك.

وكذلك تخلَّص بقية الشياطين من الرجال الذين يحرسون المقر السري للعصابة، ثم تقدَّم «أحمد» من السرداب ليفاجأ الرجل بـ «أحمد»، فيصيح الرجل وهو يجري إلى الداخل: العصابة وصلت يا ريس، العصابة.

كان «أحمد» قد توغَّل في السرداب الموصِّل إلى «البركة السرية» تحت الأرض، ورأى شعاعًا خافتًا ينبعث من الداخل من بعيد، ورأى ذلك الرجل يلتفت للخلف ممسكًا بندقيته يحاول أن يُطلق النار، وفي جزء من الثانية كان «أحمد» قد أخرج مسدسه في سرعة فائقة، وأطلق على الرجل رصاصة أسقطَته بدون صوت ودون إحداث ضجيج.

في نفس اللحظة كان «الريس» — زعيم العصابة — قد شعر بالخطر، وأحسَّ بأن العصابة قد اقترب وقتُ مجيئها. وهو لم يعرف من القبطان حتى هذه اللحظة أين مكان المخدرات. أمسك «الريس» بخناق القبطان الذي كان ضيفه من لحظات في محاولة يائسة ليعرف منه مكان المخدرات وأين ألقى بها؟ ... كان القبطان مريضًا باديَ الضعف، ويبدو أنه تعرَّض لمضايقات وتعذيب حتى يكشف سرَّه. لكن القبطان لم يكشف سرَّه؛ لأنه لم يقبض ثمنًا حتى هذه اللحظة، وأدرك غدرَ «الريس» وأعوانه، فلم يُبِح بشيء، ورغم ما تعرَّض له من تعذيب، هدَّد «الريس» القبطان في يأس، وقال: انطق أين خبأت البضاعة؟ تكلم ... تكلم قبل أن أُنهيَ حياتك.

أحسَّ زعيم العصابة بأقدام تدخل عليه «البركة السرية»، فاستدار وفي يده بندقية، ورفعها ليضغط على الزناد، ولكن «أحمد» كان قد قفز في سرعة خاطفة، وضربَه ضربةً فطارَت عمامتُه، لكنه كان قويًّا، فتمكَّن من «أحمد» وقلبَه على الأرض وربض فوق صدر

«أحمد»، وصوَّب البندقية إلى رقبة «أحمد»، وقبل أن يضع يده على الزناد كان «أحمد» قد ضربه ضربة قوية أطارت البندقية من يده فأسقطت مصباح الكيروسين فوق أعواد القش والبوص وسرَت النار في «البركة»، وضغط «أحمد» على الرجل ثم أسقطه على الأرض، وتمكَّن منه وضربه ضربة قوية فتراخَت يده. بينما كان الشياطين في هذه اللحظة يسحبون القبطان قبل أن تُدركَه النيران، وأومأ إليهم «أحمد» أن يخرجوا بسرعة بعد أن تكاثر الدخان وتحولت البركة إلى حريق هائل في لحظات.

حمل «فهد» القبطان المتهالك فوق عاتقه، وخرج به من السرداب إلى حيث الهواء الطلق. كان القبطان في حالة سيئة، فوضعه الشياطين على الأرض ليستنشق بعض الهواء النقي ... لكنه كان قد اقترب أجله ... انحنى الشياطين عليه ليطمئنوا عليه، فنظر إليهم جميعًا، وقال لهم في صوت متهدج: أشكركم جميعًا ... إني أراكم من أهل الخير ... وأريد أن أدلَّكم على مكان المخدرات الذي لم أُبِح به لمخلوق قبلكم. أريد أن أصحح خطئي. أريد أن أعمل شيئًا أكفِّر به عن سوء صُنعي، لقد غرَّر بي هؤلاء وأنا شريك الآخرين في الجريمة. أريد أن أدلَّكم على مكان المخدرات قبل أن يصل إليها أحد فيُهلك بها الشباب ويدمر بها الأمة ... إن المخدرات تبعد عن السفينة بحوالي ثلاثة كيلومترات إنها ...

وضاقَت أنفاسُه وتحشرجَت.

فقال «أحمد»: انطق أرجوك تكلَّم. تكلَّم قبل أن يطلع النهار أو يصل إلينا أحدٌ من أفراد العصابتَين. فحاول القبطان جاهدًا أن ينطق بالمكان، ولكن كانت الحروف متقطعة تتلجلج داخل حلقه ... ثم أخذ نفَسًا عميقًا ثم بدأ يتكلم.

وقال: إنها ... بالقرب من «طابية عرابي»، وهناك حقيبة بها خريطة سرية للمكان بالتحديد وبالحقيبة خمسون ألف جنيه، أعطاها لي أصحاب المخدرات «مقدمًا» حتى أوصل البضاعة إليهم، إنها لكم، استخدموها في عمل الخير وإنقاذ مَن يحتاج إلى مساعدة والـ ... ثم سعل ... وراح في غيبوبة خفيفة.

فقال «أحمد»: أرجوك ... تمالَك ... أفِقْ ... أخبرنا.

بدأ القبطان يتأوَّه ويحاول الكلام ولكن ذلك كان بصعوبة بالغة. قال: والحقيبة في الط ... في الطاحونة المهجورة.

ثم شخصَت عيناه.

صاح «أحمد»: وأين الطاحونة المهجورة ... أرجوك تكلَّم.

لكن القبطان كان قد فارق الدنيا، ولفظ آخر أنفاسه، فلم يسمع «أحمد».

نظر الشياطين إلى بعضهم نظرة يائسة في الوقت الذي كانت أضواء الفجر تنبعث في الأفق، لكن «أحمد» أعاد الأمل إلى نفوسهم قائلًا: لا مجال لليأس لقد صنعنا مستحيلًا ... إننا الوحيدون الذين نعرف مكان المخدرات والحقيبة. وإذا كان القبطان قد مات، فلا أحد يعرف سرَّه سوانا.

تحرَّك الشياطين وسط الجزيرة متجهين إلى ناحية الشرق حيث تركوا المركب و«عثمان». كان النهار قد أوشك على الطلوع، وبدَت الجزيرة هادئة، في الوقت الذي بدأ يتهادى فيه إلى أسماع الشياطين صوتُ محركات من بعيد تقترب.

نظر الشياطين إلى أعلى ... فلم يروا شيئًا ... فقال «بو عمير»: إن هذا الصوت صوت طائرة هليكوبتر. فقال «أحمد»: لا. إنه صوت محركات زوارق ... أظن أننا مقبلون على معركة وشيكة ... مكانكم ... لا تتحركوا حتى نتبيَّن ... انحنى «أحمد»، وسار عدة خطوات ثم رفع رأسه لينظر إلى مصدر الصوت، فرأى زورقَين مطاطَين فيهما بعض الأشخاص ... لكن لا تبدو ملامحهم؛ لأن الشمس لم تُشرق بعد.

اقترب الزورقان من الجزيرة، ودخلَا في أحد الأسراب لحظات، وكان أحد الزورقَين قد ظهر عند حافة الجزيرة، ورأى «أحمد» من خلال البوص أن به بعض الجنود، ثم نزل من الزورق الأول رجلٌ قويُّ البنية، يرتدي الزيَّ العسكري ... ثم واصل السير تجاه الشياطين الذين تجمَّعوا ووقفوا يرقبون المشهد حتى اقترب الرجل فبدا واضحًا كلُّ شيء ... ورفع الرجل يدَه بعلامة النصر وهو متجه إلى الشياطين، ولَّما اقترب منهم قال: «النورس الغريب»، عقيد شرطة: مدحت الرفاعي.

نشكركم كثيرًا، وأُبلغكم تحيات الزعيم رقم «صفر» وسعادته بنجاح جزء كبير من المهمة.

فابتسم الجميع ... وفي تلك اللحظة كانت الشمس قد أشرقت ورجعوا في فرحة غامرة تحملهم الزوارق المطاطية لكي يُكملوا المهمة التي أتَوا من أجلها وهي العثور على شحنة المخدرات.

الطاحونة المهجورة!

كان الشياطين قد تناولوا طعام الإفطار باستراحة شرطة المسطحات المائية، وبعد أن أمضوا دقائق في الحديث، نظر الصديق الجديد إلى «أحمد»، وقال له: تستطيع الآن — وبكل سهولة — أن تدخل هذه الحجرة، وتتصل بالزعيم رقم «صفر».

دخل «أحمد» الحجرة فوجدها مجهزة بأحدث الأجهزة للاتصال بأيِّ مكان، وعلى الفور لم يتردد «أحمد» في الاتصال بالزعيم رقم «صفر» وإخباره بما حدث.

كان الزعيم رقم «صفر» على علم بكل هذه التفاصيل. لكنه بعد ذلك حدَّد لهم المهمة المقبلة والتي يجب أن تُنجز على وجه السرعة قبل فوات الأوان؛ حيث إن العصابتَين أصبحتَا كخلية النحل تقومان بعملية مسح شاملة وتفتيش واسع عن مكان المخدرات. وأصبح من الضروري الوصول إلى المخدرات وإلا ضاع كلُّ التعب والوقت هباء.

كانت المهمة المقبلة تتركز في رجوع أربعة من الشياطين إلى قرية برج «البرلس» والبحث عن الحقيبة التي خبَّأها القبطان وبها الخريطة السرية والأموال، وذلك بعد تحديد مكان الطاحونة المهجورة؛ فإذا وجدوا الحقيبة عرفوا أين «طابية عرابي» التي تُخفي هذا السرَّ. انتهت المحادثة ورجع «أحمد» إلى بقية الشياطين، وأخبرهم بما كان من الزعيم رقم «صفر» وتحديد المهمة.

والتفت «أحمد» إلى النورس الغريب، وسأله: ألَا تعرف شيئًا عن الطاحونة المهجورة؟ فقطَّب الضابط حاجبَيه مستفهمًا: الطاحونة المهجورة؟ هذه أول مرة أسمع فيها هذا الاسم. ولم يتردد قبل ذلك أمامي، وما أظن أحدًا يعرف شيئًا بهذا الاسم.

نظر «أحمد» إلى الشياطين وقال: ليس أمامنا وقتٌ للحوار، الآن سنتحرك ... سيبقى أربعة وينجز الأربعة الباقون المهمة.

ردَّ «بو عمير»: أنا معك، إني مشتاق لمعرفة سر الطاحونة المهجورة و«طابية عرابي».

وقال «قيس»: لا يمكن أن أتأخر، لن أحتمل الانتظار.

أما «خالد» فقام يُهيئ نفسه ويستعد للذهاب مع الثلاثة دون كلام.

قال «أحمد»: يجب أن تكونوا على استعداد تام إذا احتاج الأمر، وودَّع بقية الشياطين ثم خرجوا من البوابة الخلفية للاستراحة وقصدوا موقف السيارات، وأخذوا السيارة الذاهبة إلى قرية «برج البرلس».

كانت الساعة تقترب من العاشرة لكن الجو يبدو وكأنه في الصباح الباكر؛ فالسحب القاتمة تحجب أشعة الشمس والبحيرة الداكنة تُثيرها الرياح بقوة فتتلاطم أمواجها.

شرد «أحمد» بذهنه وبدأ يفكر ويسأل نفسه: هل الطاحونة المهجورة خدعة خدعَنا بها القبطان؟ وكيف سنصل إلى المخدرات إذن؟

ثم أفاق لحظة كأنه يستنكر أن يحدث هذا: لا. غير ممكن، إن القبطان لم يكن كاذبًا، لم يكن وراء كذبه منفعة له حتى يكذب علينا، إنه كان يخاف من العصابة؟ لقد كان في أيديهم، فلماذا لم يَقُل لهم؟ لقد كان يموت وهو يقول هذا، فلماذا يكذب؟

تنبه «أحمد» إلى أن السيارة وصلت القرية، وحين توقفت نزل الشياطين الأربعة، ووقفوا.

قال «بو عمير»: الآن أستطيع أن أذهب إلى البوغاز وحدي. إن هذا المشهد قد حُفر في ذاكرتي.

قيس: إن القرية محصورة بين طريق واحد يلتفُّ حولها من البحيرة إلى البحر ثم يدور ويعود إلى نفس المكان.

أحمد: يجب علينا الآن أن نتحرك، فيجب الحذر؛ لأنني واثق أن أفراد العصابتَين يراقبون كلَّ شيء حتى الهواء الذي نتنفسه، ولا يجب أن نذكر شيئًا اسمه «الطاحونة المهجورة» لأي أحد ... فربما يكون من أفراد العصابتَين.

سار الشياطين الأربعة حتى وجدوا مقهى، فجلسوا فيه يشربون الشاي. وأقبل شابٌّ في الخامسة عشرة من عمره يحمل أكواب الشاي فوق «صينية»، وبيده الأخرى قطعة قماش يمسح بها المنضدة.

قال له «أحمد»: شكرًا يا ... ما اسمك؟

ردَّ الفتى: اسمي «سامي».

قال «أحمد»: أهلًا وسهلًا ... أنا اسمي «أحمد» ... وهؤلاء زملائي: «خالد»، و«بو عمير»، و«قيس». إنهم زملائي في الكلية، وقد جاءوا معي في رحلة.

قال الفتى: أليس معكم أمتعة؟

ردَّ «أحمد» على الفور: معنا طبعًا ... لكننا تركناها في بلطيم مع بعض زملائنا ... وجئنا نتعرف على معالم هذه القرية ... أنت من أهل هذه القرية؟

قال الفتى: نعم ... من أهل هذه القرية أبًا عن جدٍّ.

ردَّ «أحمد»: هل تتعلم في المدرسة؟

قال: نعم، في الصف الثاني الثانوي؛ أذهب إلى المدرسة في الفترة المسائية، ولكني هنا أساعد أخي الأكبر.

قال «أحمد»: بالتأكيد ... أنت تعرف كلَّ شيء عن بلدكم.

ردَّ الفتى: نعم ... كل شيء.

أراد «أحمد» أن يعرف بعض المعلومات منه ... لكنه كان على حذر حتى لا ينكشفَ أمرُه أو يسأل الفتى مباشرة عن الطاحونة المهجورة، فلا يعرفها فيضطر لسؤال أخيه عنها وتتسع الأمور، فبدأ يسأله عن أشياء بديهية معروفة لكل إنسان.

قال «أحمد»: أنا سعيد جدًّا بمعرفتك ... والحقيقة الكلام مع إنسان متعلم شيء مريح.

رد «سامي»: وأنا كذلك ... ومستعدٌّ لأي مساعدة.

قال «أحمد»: شكرًا ... لكننا نخشى أن نعطلك عن عملك.

قال «سامي»: لا. ليست هناك عطلة ... إن الزبائن قليلة جدًّا — كما ترى — وينقصون ولا يزيدون.

قال «أحمد»: نريد أن نستوضح منك عن بعض الأشياء.

قال «سامي»: قُل. ماذا تريد أن تعرفه عن قريتنا؟

قال «أحمد»: يعني ... طبيعة الناس هنا ... ماذا يعملون؟ وكيف يعيشون؟ أليست هنا معالم سياحية أو أثرية مثلًا؟

قال «سامي»: يوجد الكثير ... الجزر الموجودة في البحيرة ... مملوءة بالأسرار.

قال «أحمد»: وهنا في القرية، أليس فيها أية معالم سياحية أو أثرية؟

قال «سامي»: ماذا تعني؟

أحمد: لا أعني شيئًا محددًا ... لكنه سؤال عادي.

قال «سامي»: لا، إن قريتنا ليس فيها شيء يلفت النظر ... كل شيء فيها عادي.

قال «أحمد»: شكرًا ... ونحن سعداء بمعرفتك.

فأومأ «سامي» برأسه، وقال: شكرًا ... ثم دخل المقهى.

ارتشف «أحمد» رشفة من كوب الشاي ثم قال: لا شيء مهم ... كل شيء عادي. أخشى ألَّا نصلَ إلى شيء.

لحظات وانتهى الشياطين من شرب الشاي، وأخرج «أحمد» من جيبه خمسة جنيهات ووضعها فوق الصينية، وأقبل الفتى ورفع الصينية، لكنه دُهش حين رأى الورقة المالية، فأمسكها، وقال لـ «أحمد» ليس معنا «فكة».

قال «أحمد»: لا نريد الباقي ... شكرًا ... ثم قال له في شيء من التجاهل وعدم المعرفة: أتعرف رجلًا اسمه عم «خضر» ... عم «عثمان».

قال «سامي»: آه، نعم. عم «عثمان خضر». ومن أين عرفته؟ وكيف؟

قال «أحمد»: تعرَّفت عليه في السيارة بالأمس. وعرف منَّا أننا قادمون لزيارة القرية، وقال لنا: سأريكم الـ... الطاحونة القديمة ... الطاحونة المهجورة ... شيء مثل هذا.

قال «سامي»: ليس هنا شيء اسمه الطاحونة ... آه ... تقصد ماكينة الطحين ...

قال «أحمد»: يجوز ... أنا لا أعرف شيئًا.

قال «سامي»: إنها قريبة من هنا ... وماذا فيها؟ إنها شيء عادي، لا شيء فيها غريب ... ماكينة تطحن حبوب الشعير والقمح والذرة.

قال «أحمد»: طبعًا شيء عادي، ربما ظن أنها بالنسبة لنا شيء غير عادي ... المهم أين نجد هذا الرجل الطيب؟

رد «سامي»: كان هنا في الصباح يشرب الشاي، الآن تجده عند البوغاز ... تستطيع أن تصل إليه؟

قال «أحمد»: نعم ... شكرًا لك.

أخرج «أحمد» منديلًا من جيبه بعدما فارق المقهى وأخذ يمسح وجهه وجبهته ...

ثم التفت إلى زملائه، وقال: كدنا أن ننكشف.

سار الشياطين تجاه البوغاز، وهناك وجدوا عم «عثمان»، فرحَّب بهم ودعاهم للذهاب إلى بيته، لكنهم شكروه وتظاهروا بأن الوقت ضيق ولا يسمح، وأنهم جاءوا في مهمة محددة. ثم سأله «أحمد» قائلًا: عم «عثمان» أيوجد شيء اسمه الطاحونة المهجورة؟

شرد عم «عثمان» لحظات ثم قال: الطاحونة المهجورة، لا شيء بهذا الاسم هنا.

أحمد: تذكَّر يا عم «عثمان» ... ركِّز أرجوك.

سرح عم «عثمان» بفكره بعيدًا وهو يغمغم: الطاحونة المهجورة ... الطاحونة المهجورة ... آه تذكَّرت ... لكن هذا شيء مرَّت عليه العديد من السنين ... ولا يوجد له أثر الآن.

أحمد: كيف يا عم «عثمان»؟

بو عمير: نعم كيف وأنت اعترفت بوجودها من لحظة؟!

عم «عثمان»: لقد كانت هنا فعلًا طاحونة تعمل بقوة الريح، ولكن الناس هجروها؛ لأن الأشباح تسكنها، وظلت مهجورة أكثر من ستين عامًا، ولا أحد يجرؤ على الاقتراب منها.

أحمد: لماذا؟ رغم أن وجودها كان ضروريًّا؟

عم «عثمان»: لقد قتلَت — منذ زمن — الرَّحَى رجلَين من الذين كانَا يعملان بها ... ومنذ ذلك الوقت أشاع بعضُ الناس أنهم كانوا يرون أشباحهما ليلًا ... فهجرها الناس، وظلت كذلك حتى تصدَّعَت واندثرَت ... وبقيَ مكانها خاليًا يُلقى الناس فيه الفضلات.

بو عمير: أَلَا يوجد أيُّ أثر يدل على مكانها؟

عم «عثمان»: لا أثرَ على الإطلاق، إلا بضعة أحجار مرصوصة تحت الأرض يبرز منها أجزاء صغيرة لا تدل على أي شيء.

أحمد: أوصِلنا إلى هذا المكان من فضلك.

سار الشياطين خلف عم «عثمان» وهو يتجاذبون أطراف الحديث، وعم «عثمان» يخرج بهم من شارع ليدخل في حارة ضيقة ثم يلوي بهم إلى شارع ... وهكذا حتى وجدوا أنفسهم بعيدًا عن البيوت وفي مكانٍ خالٍ تمامًا من أي بناء.

أحمد: ما هذا يا عم «عثمان»؟

عم «عثمان»: إنه مكان الطاحونة المهجورة.

أحمد: كيف؟! لا يوجد أيُّ أثر لأيِّ شيء هنا؟!

عم «عثمان»: هذا ما أعرفه جيدًا ... ولا شيء بهذا الاسم غير هذا المكان الذي كانت فيه — فعلًا — الطاحونة المهجورة.

وخطَا «أحمد» بضع خطوات تجاه المكان، فحص الأرض بقدمه ... وأخذ يزيل بعض التراب بقدمه ... ثم ينحني ثم يشير لباقي الشياطين: تعالوا ... انظروا.

قيس: ما هذا؟

خالد: أهناك شيء يستحق النظر؟!

أحمد: نعم ... إنها كتل صخرية ضخمة ... ولا بد أن وراءها كلامًا كثيرًا.

بو عمير: ماذا تعني؟

أحمد: أعني أن هذه الصخور لا بد أنها تُخفي أسرارًا كثيرة.

أخرج «أحمد» الخنجر من جيبه ثم بدأ يُزيل التراب من بين كتل الصخور وبعضها ... ثم توقَّف ونظر إلى الشياطين، وقال: شيء عجيب! فردَّ «خالد»: ما هو هذا الشيء العجيب؟

قال «أحمد»: هذه الكتلة الصخرية ... منظرها غريب وشكلها ... إنها دائرية ... «خالد» ادفع هذا التراب بعيدًا.

وأخذ «خالد» يدفع هو و«قيس» التراب؛ فظهر في وسط الصخرة الدائرية قضيبٌ حديدي يتوسط الصخرة.

أحمد: ألم أقل إن وراء هذه الصخور أسرارًا؟ حاولوا معي ... سندفع الصخرة لكي تتحرك حول هذا القضيب.

خالد انحنى وهو يقترب من «أحمد» وقال: إننا مراقَبون!

أحمد: وكيف عرفت؟

خالد: حاول أن تسترقَ النظر إلى هذه الأزقَّة الضيقة ... ستجد رءوسًا تطل منها تنظر نحونا بين الحين والآخر.

أحمد: وما العمل؟ أنتوقف ونعود؟

بو عمير: لن نتوقف، سنكمل ودَع الأحداث تمر.

أحمد: هيا بنا ... سندفع الصخرة دفعة واحدة حتى تتحرك.

أخذ الجميع يستجمعون كلَّ قوتهم ويدفعون الصخرة التي تتحرك شيئًا فشيئًا لتترك تحتها فتحة عميقة داخل الأرض ... ثم استمر الشياطين يحركونها حتى ظهرَت درجاتٌ لسُلَّم صغير على جانب الفتحة ...

رفع «أحمد» بصره ونظر إليهم ثم قال: أيديكم فوق مسدساتكم حتى أعود.

صراع في الظلام!

هبط «أحمد» درجات السُّلم، كانت الرائحة تحت الأرض كريهة ونفاذة، وكلما هبط ازدادت الظلمة، لكن فجأة اصطدمَت قدمُه بالأرض ووجد شيئًا يتلوَّى تحت قدمه وفي سرعة أخرج مسدسه والبطارية باليد الأخرى ثم وجَّهها تحت قدمه ... فزع «أحمد» حين رأى المنظر، إنها حية ضخمة تتلوى وتحاول أن ترفع رأسها لتقتله، ارتعد «أحمد» من رؤيتها ولكنه في سرعة البرق كان قد سدد إلى رأسها طلقة صائبة جعلَتها تهوي إلى الأرض خامدة.

أدار «أحمد» ضوء البطارية في المكان، فوجد شيئًا أسود اللون بارزًا في ناحية، انحنى في حذر واقترب منه وحرَّكه بقدمه ... لم يكن هذا الشيء سوى الحقيبة التي جاءوا من أجلها ... قبض «أحمد» على الحقيبة وأزاح ما عليها من تراب ثم حملها واستدار إلى السُّلم ليصعد إلى الشياطين.

خرج «أحمد» برأسه والعرق يتصبَّب منه، وقال: بعض الهواء أكاد أختنق.

بو عمير: اصعد ... لقد أخذتَ وقتًا طويلًا.

أحمد: لقد كدتُ أموت ... حية ضخمة في حجم رقبة الجمل هاجمتني لولا أنني تصرفتُ بمنتهى السرعة لكان لي شأنٌ آخر الآن ... اقتربوا قليلًا حتى أخرج بالحقيبة.

خرج «أحمد» من الهُوَّة السحيقة وكلُّه عرقٌ يتصبَّب وتراب ومعه الحقيبة ... ولكنه ما كاد يقف على قدميه حتى كان المكان محاطًا بعدد كبير من الرجال. لقد برزوا من الأزقة والحارات الضيقة وبدءوا يتحركون تجاه الشياطين في هدوء ومن كل الاتجاهات.

شعر الشياطين بأن «كماشة» قوية قد أحكمَت عليهم، عشرة رجال في مقابل أربعة ... تمتم «أحمد»: إنها معادلة صعبة ... ولكن لا مفرَّ.

اقترب أحد الرجال العشرة وفي يده مسدس، وقال لـ «أحمد»: ألقوا أسلحتكم. وناولني الحقيبة. أخرج الشياطين مسدساتهم وألقوا بها قريبًا من أرجلهم ... أشار الرجل إلى أحد أفراد العصابة وقال له: هات المسدسات.

كان هناك رجل آخر يقف وراء هذا الرجل يحمل بندقية ... نظر «أحمد» إلى بقية رجال العصابة فلم يجد أحدًا معه سلاح ... إلا هذين الرجلين، لكنه لم يكن واثقًا أن بقية الأفراد لا يحملون أسلحة ... كان الرجل الذي يُمسك بالمسدس يقترب من «أحمد» ليأخذ الحقيبة ... بينما تحرك الآخر ليأخذ المسدسات من تحت أرجلهم ... نظر «أحمد» إلى الشياطين الثلاثة وعلى الفور فَهِم الثلاثة ما يريده «أحمد»، إن أفكارهم تنتقل بالنظرات ... إنهم متفاهمون في كل شيء وعلى أي شيء.

مدَّ «أحمد» يده بالحقيبة إلى الرجل ومدَّ الرجل يده ليأخذها، لكن ساق «أحمد» كانت من السرعة بحيث أطارَت المسدس من يده ثم لفَّ «أحمد» يده حول الرجل في ثانية في نفس اللحظة كان «بو عمير» قد ضرب الرجل الثاني ضربة قوية قبل أن تمتدَّ يدُه إلى أول مسدس.

وفي سرعة البرق، كان باقي أفراد العصابة قد هجموا على الشياطين ودارَت المعركة الفاصلة؛ فرغم كثرة أفراد العصابة إلا أنهم لم تكن لديهم دراية بفن الكاراتيه والكونغو فو؛ فقد أعطاهم الشياطين درسًا لن ينسَوه طوال حياتهم، وأبرحوهم ضربًا حتى تكوَّموا على الأرض فاقدي الوعي.

نظر «أحمد» إلى الشياطين نظرة نشوة بالنصر ثم اقترح على الشياطين أن يقيدوهم بالحبال لكن لم تكن معهم حبال؛ فجردهم الشياطين من جلابيبهم ثم قيدوا أيديَهم إلى بعضها وراء ظهورهم، وطرحوهم عند الصخرة وعادوا إلى بقية الشياطين.

اتصل «أحمد» في المساء بالزعيم رقم «صفر» وأعطاه تقريرًا بما حدث، فأبلغه الزعيم بضرورة التحرك والوصول إلى مكان المخدرات قبل أن يتعقبَكم أفراد العصابتَين، ويقضوا عليكم قبل أن تصلوا إلى مكان المخدرات.

بسط الشياطين الخريطة السرية للقبطان أمامهم على مكتب في استراحة صديقهم ضابط الشرطة، ووجدوا الخريطة مرسومًا بها البوغاز وجزء من البحر والشط. وقد وضعت بعض العلامات في مكان الماء، وعلى الشاطئ عدة علامات متراصة في خط مستقيم ثم ثلاث علامات في دائرة صغيرة، وعلى نفس الخط الرأسي لهذه العلامات في البحر علامة + داخل دائرة.

أحس الشياطين أنهم أمام لغز غامض. ما هذه العلامات؟ ماذا تعني على الشاطئ؟ وماذا تعني على الماء؟

أزاح «أحمد» الخريطة ثم دق بيده على المكتب، وأدار رأسه ... ثم جذب الخريطة وطواها ... لكنه تنبَّه إلى أن هناك علاماتٍ وخطوطًا على ظهر الخريطة، فقال: ما هذا؟

ثم أكمل: إنها حل اللغز الغامض ... انظروا.

نظر «أحمد» والشياطين إلى العلامات والتوضيح الذي أمامها، وبدأ يقرأ بصوت مرتفع: العلامة على الشاطئ: «عمود» يحمل أسلاك التليفونات، والعلامات الثلاث: ثلاثة أعمدة مجتمعة في مستواها الرأسي بالبحر، وعلى بعد اثنين كيلو من الشاطئ «طابية عرابي» التي غمرَتها وطفَت عليها أمواج البحر، والبضاعة بالقرب من هذه الطابية في حدود مائتي متر.

أحس الشياطين بالسعادة؛ لأنهم أوشكوا على النهاية، وعرفوا سرَّ الصفقة ومكان البضاعة ولم يبقَ إلا ساعات قليلة وينتهي كلُّ شيء.

نظر «أحمد» إلى الشياطين، وقال: لا بد أن نتجهز من الآن ... كيف سننزل البحر؟ وبأي كيفية؟

قام «أحمد» ورفع سماعة التليفون واتصل بصديقهم الضابط في منزله: أهلًا وسهلًا.

أحمد: نحن نأسف لهذا الإزعاج، ولكن هل يمكن أن ننزل البحر غدًا؟

الضابط: ولماذا؟

قال «أحمد»: لنرى السفينة.

قال الضابط: لقد تحطَّمت، ولم يبقَ فيها إلا هيكلُها تحت الماء.

أحمد: نريد أن نُلقيَ عليها نظرة أخيرة.

قال الضابط: وهو كذلك ... سأجهز لكم مركبًا ... ولا مشكلة بالنسبة للتصريح.

عاد الشياطين إلى البوغاز، ووجدوا مركبًا بخاريًّا صغيرًا ينتظرهم، وبه أحد الصيادين.

هبط الشياطين الأربعة إلى المركب، وبقيَ الأربعة الآخرون على الشاطئ ... أدار الصياد «الماكينة» ثم انطلق المركب خارجًا من البوغاز ... وبعد دقائق استقل الشياطين الأربعة الباقون «المعدية» إلى الشاطئ الآخر، ثم استقلوا «جرارًا» زراعيًّا، وانطلقوا إلى الغرب بجوار هذه العلامات حتى وصلوا إلى العلامة الثلاثية ... نزل الشياطين من «الجرار» وواصل الجرارُ مسيرتَه، بينما قصد الشياطين العلامة الثلاثية. وقف الشياطين يتأملون الأعمدة الخشبية القديمة وهي تحمل الأسلاك التليفونية، ثم أخرج «فهد» منظارًا مكبرًا

من الحقيبة الصغيرة ووضعه على عينَيه، وأدار عينَيه في المكان بحرًا وبرًّا، لكنه لم يجد شيئًا ... كان المركب الذي يستقله «أحمد» و«بو عمير» و«خالد» و«قيس» لم يظهر بعد. ووجَّه «فهد» المنظار ناحية البوغاز، ثم قال: لقد ظهروا، وها هم في الطريق.

كانت الدقائق تمر ... والمركب يقترب من المنطقة ... حتى بدَا واضحًا فوق الأمواج. أخرج «أحمد» من الحقيبة منظارَه المكبر، ثم وضعه على عينيه ونظر إلى العلامة الثلاثية، وحدد خطَّ التعامد ثم قدَّر المسافة ... وأشار للصياد أن يُلقيَ «الهلب».

نزل «أحمد» إلى «كابينة الموتور»، وخلع ملابسه، وارتدى ملابس الغوص، ثم أخرج من المركب حبلًا طويلًا وربط في طرفه حجرًا، وجعل يُرخي للحجر بعد أن ألقى به في الماء حتى استقر على الأرض ثم رفعه، وبدأ يقيس عمق الماء فوجده تسعة أمتار ... وقف «أحمد» على جانب المركب وأمسك بيده طرفًا من الحبل السميك، وقال لهم: إذا جذبتُ الحبل مرة فأطيلوا الحبل لي، وإذا جذبتُه مرتين فهذا معناه أني انتهيتُ من مهمتي فارفعوا إلى أعلى.

ثم قفز «أحمد» وسرعان ما كان تحت الماء واختفى. اللحظات تمر صعبة ... فكل لحظة تحت الماء كأنها عمر طويل ... لقد هبط «أحمد» بعيدًا عن البضاعة قليلًا ... لكنه سبَح إليها فوجدها معبأة في إطارات من الكاوتشوك. جذب «أحمد» الحبل جذبة فعَلِم بقية الشياطين أنه يحتاج إلى مدد، فأطالوا له الحبل. بدأ «أحمد» يربط الإطارات ببعضها، ثم جذب الحبل جذبتين ... فلم يهتمَّ أحد ... جذب «أحمد» الحبل جذبتَين مرة أخرى ... لكنَّ أحدًا لم ينتبه له، فأمسك «أحمد» بالحبل، وجعل يستعين به في الصعود حتى إذا صعد على سطح الماء وجد حول المركبة ثلاثة مراكب أخرى لكنها كانت مشحونة بأفراد العصابة. غطس «أحمد» تحت الماء مرة أخرى وأخذ يسبح تحت الماء حتى وصل أسفل أحد المراكب فقطع حبل الهلب ثم سبح في خفاء وربط به «الرفاص» ربطًا محكمًا ثم رفع رأسه دون أن يراه أحد، ونظر إلى أقرب المركبَين الباقيَين ثم سبح ناحيته تحت الماء كالسمكة فصنع به نفس الصنيع. ثم عاد إلى المركب وصَعِد مع بقية الشياطين ...

رفع المركب الثالث «الهلب» ثم اقترب من مركب الشياطين ... بينما ظل المركبان الثانيان منطلقَين مع الأمواج تجاه الشاطئ، فلم يُفلحوا في تشغيل «الرفاص»؛ لأن «أحمد» قد شل حركتَهما.

اقترب المركب الثالث مشحونًا بأفراد العصابة، ونادى على الشياطين: أين البضاعة؟ هاتوا البضاعة وسنترككم تعودون سالمين.

فقال «أحمد»: أية بضاعة؟ نحن لا نعرف شيئًا.

فقال الرجل: أنتم تعرفون كلَّ شيء، وأعدكم وعد شرف ... إذا أنتم سلمتمونا البضاعة سنترككم ترحلون في أمان.

كان «أحمد» يريد أن يُطيل معه الحوار حتى يقترب أكثر فأكثر فيستطيع الشياطين من قريب أن يتعاملوا معهم.

كان الرجل جادًّا في تهديده؛ فما إن اقترب من المركب حتى أطلق طلقة على مصباح على ظهر المركب، ثم قال: أمامكم خمس دقائق ... وإلا فسيغرق المركب بكم.

أحس «أحمد» أن الخطر بهذه الصورة محدق بهم وعليهم التعامل فورًا قبل أن يتمكن الآخرون من فعل شيء ... أشار «أحمد» إلى بقية الشياطين بعينَيه، ففهم الشياطين مراده، وزحفوا بسرعة على ظهر المركب، وأخذ كلٌّ منهم مكانًا مناسبًا لإطلاق النار.

تظاهر «أحمد» بأنه يخلع زيَّ الغوص، وفي لمح البرق كان قابضًا على مسدسه، وفي جزء من الثانية كانت طلقة قد استقرت في الرجل فاندفع إلى البحر، وسقط وتوالت بعد ذلك الطلقات من الجانبَين، لكن الشياطين أحسوا أن مركبهم يهوي إلى قاع البحر، بعدما أصابَته العصابة ... في نفس اللحظة كان مركب العصابة قد اقترب حتى أوشك على الاصطدام بمركب الشياطين ظنًّا منهم أنهم أشرفوا على الهلاك بغرق مركبهم ... لكن الشياطين في لحظات كانوا قد قفزوا إلى المركب الآخر في صيحة قوية كصيحة الأسود. أمسك «بو عمير» بإحدى السواري ثم قفز بقدمَيه دافعًا رجلَين إلى الماء في قوة.

بينما كان «أحمد» قد تعلَّق بحبل ثم اندفع إليهم كالصخرة، وهو ممسك بالحبل، فأطاح باثنين من فوق ظهر المركب.

كان الشياطين الأربعة الباقون يرقبون المعركة من فوق الشاطئ، وحين التفت «باسم» إلى الخلف وجد أفراد العصابة الأخرى قد جاءوهم من الخلف، وخرجوا من البوص القريب وبدءوا يقتربون من الشياطين ... فتح «باسم» حقيبته وأخرج قنبلة يدوية ... فسمع أحد أفراد العصابة يقول: ألقِ سلاحك وإلا قتلتك.

فقال «باسم»: نعم سأُلقيه فورًا.

ثم قذف بالقنبلة على أفراد العصابة وهو قادمون كسرب الجراد، فتناثرت الأجزاء في الهواء، وحدث انفجار ضخم هزَّ الشاطئَ كلَّه، وبدأ الغبار يسد الأفق.

في نفس اللحظة كان العديد من القوارب والزوارق تقترب من المراكب التي تقف في عرض البحر، بينما «أحمد» وبقية الشياطين منهمكون في ضرب أفراد العصابة كأنهم في تدريب.

كانت القوارب والزوارق قد حاصرت المكان ... وقبض قائد الكتيبة وجنوده على بقية أفراد العصابة وفي نفس اللحظة كانت زوارق شرطة المسطحات المائية المطاطية قد طوَّقت المكان من ناحية البحيرة، وأمسكوا ببقية أفراد العصابة الأخرى، وذهب الشياطين الأربعة مع صديقهم «النورس الغريب» الذي كان يتابعهم من بعيد ويتدخل في الوقت المناسب، بينما كان «أحمد» مع قائد الكتيبة يرفعون المخدرات من الماء، ويضعونها في المركب والزوارق.

ثم نظر الرائد «عباس» إلى المقدم «يسري»، وقال له: الآن يا سيادة المقدم أدركتُ لماذا اختفى القبطان.

هنـــداوي